روايات عالمية

القوزاق

THE COSSACKS

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

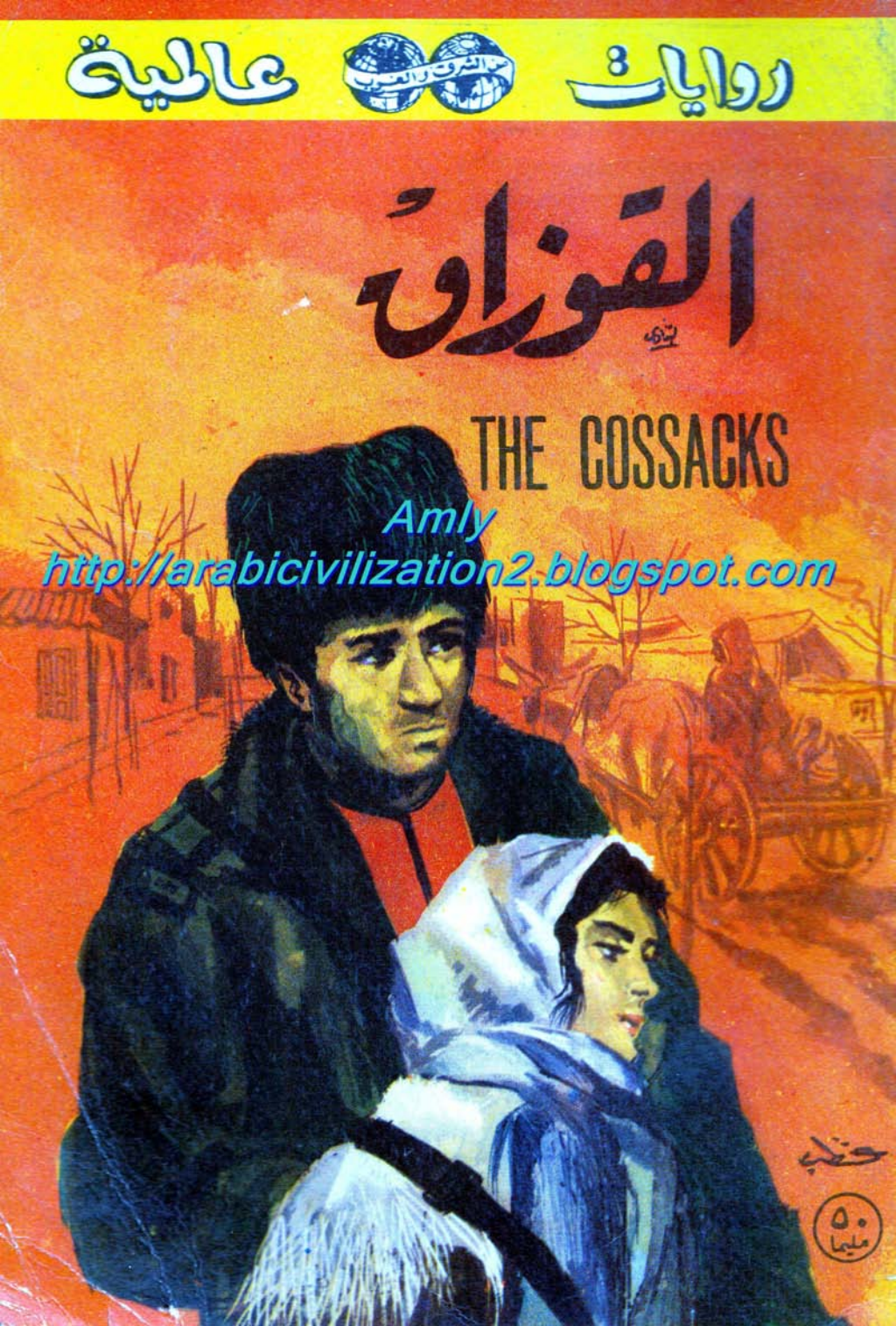

٥٠ مليما

روايات عالمية

العدد رقم ٣٠٠

القوزاق

القوزاق

للكاتب الكبير **ليو تولستوى**

تعريب حسين القباني

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

الفصل الأول

الرحيل

كان السكون يخيم على موسكو . وبين كل فترة طويلة وأخرى كانت احدى المركبات تمضى على الشوارع المكسوة بالجليد . وكانت كل نافذة مظلمة ، ومصابيح الشوارع مطفأة . أما أجراس الكنائس فكانت هى وحدها التى ترسل دقاتها المتباعدة مؤذنة بفجر يوم جديد . الشوارع مهجورة .. وبين الحين والآخر كانت احدى الزحافات تشق طريقها على الشارع المكسو بالجليد لتمضى الى شارع آخر ، بينما يغالب سائقها النوم فى انتظار أحد الركاب ، ومرت سيدة عجوز فى طريقها الى الكنيسة . وفى داخل الكنيسة كانت الأيقونات المذهبة تعكس الأضواء الحمراء الخافتة المرسلة من الشمعدانات . وكان العمال قد بدأوا ينهضون بعد ليل شتاء طويل لينصرفوا الى أعمالهم .

ولكن السادة المترفين كانوا .. كعهدهم فى كل ليلة .. مستيقظين .

كانت أضواء حانة شيفالير ـ المخالفة للقانون فى تلك الساعة ـ تلوح من وراء فرجة فى خصاص النافذة . وأمام الحانة كانت تقف زحافة خاصة ، وبعض المركبات ، بينما وقف سائقوها وظهور بعضهم الى ظهور بعضهم الآخر التماسا للدفء . وكان ثمة مركبة بريد

التذكر ايضا . اما حارس البوابة المدثر الى عينيه من قرط الشعور بالبرد ، فقد وقف محتميا فى ركن من البناء .

وقال لنفسه تابع مرهق كان ينتظر فى الردهة :

ـ مامعنى كل هذه الثرثرة .. ولماذا لا تطـــول ثرثرتهم الا فى نوبتى ؟.

وكانت أصوات الشبان الثلاثة تسمع وهم يتناولون عشاءهم فى الغرفة المجاورة . وكانت بقايا الطعام والشراب متناثرة عـلى مائدتهم . وأحد هؤلاء الثلاثة كان نحيلا ضيق الصدر قصـــير الجسم جالسا يرنو الى صديقه الموشك على الرحيل بعينين مجهدتين تنمان عن الاشفاق . وكان الثـــانى طويل القامة يداعب بأصابعه سلسلة مفاتيحه . أما الثالث الموشك على الرحيل ، فكان مرتديا سترة جديدة من فراء الغنم ، كما كان يروح ويجىء فى جـوانب الغرفة ويكسر بين أصابعه لوزة بين الحين والآخر . وكان متـالق النظرات ، متوهج الوجه ، ترفرف ابتسامة غامضة على شفتيه أما حديثه فكان حارا مصحوبا بحركات من يديه لتصور المعانى التى تعجز الكلمات عن التعبير عنها .

كان يقول فى تلك اللحظة :

ـ اننى الآن أستطيع أن أتحدث بصراحة ، لا دفاعا عن نفسى ، ولكن لأنكما تفهماننى كما أفهم نفسى ، ولا تنظران الى الموضوع من الزاوية التى ينظر اليه منها الدهماء .

ثم استدار الى الشاب القصير النحيل الذى كان ينظر اليـه باشفاق وأردف قائلا :

ـ تقول أننى أسأت اليها بقطعى علاقتى بها ؟.

فأجاب الشاب القصير النحيل بمزيد من الشعور بالارهاق :

ـ نعم .. بكل تأكيـــد .

ـ اننى اعرف لماذا تقول هذا . ان من رأيك أن الانسان يجب

أن يشعر بالسعادة حين يجد امرأة تحبه كما يشعر بها حين يبادل امرأة ما الحب . ولكن شتان بين الأمرين .

– يكفى يا ولدى أن يكون الانسان محبوبا .

– لا .. لابد ان يكون الحب متبادلا .. ان الحب من طرف واحد تعاسة ، نعم .. ان من سوء حظ الانسان أن تحبه امرأة لاستطيع أن يحبها بدوره .. لانه سيكون عاجزا عن أن يمنحها من نفسه شيئا .

ثم لوح بذراعيه واستطرد قائلا :

– لو كانت الأمور تحدث بطريقة منطقية لاستراح الناس .. أشعر كأنى اسرق حب هذه الفتاة ، وحتى أنت ترى هذا . لاتنكر .. ولكن معظم الأحداث تقع على غير ما يشتهى المرء .. نعم .. اننى ومع ذلك .. فهل تعلم أن هذه الحماقة الغرامية هى الوحيدة – بين جميع حماقاتى – التى لاأشعر بالندم من ارتكابها .. اننى لم احاول منذ اللحظة الأولى أن أخدعها . لقد ظننت فى أول الأمر أنى احبها ، ولكننى اكتشفت بعد ذلك اننى خدعت نفسى ، واننى لا استطيع أن أستمر فى هذا اللون من الحب ، ولكنها عاندت واصرت على ان نستمر فى حبنا .. فهل ثمة لوم على لأننى عجزت عن حبها؟ ماذا كان فى وسعى أن أفعل ؟.

فقال صديقه القصير النحيل وهو يشعل سيجارة حتى يطرد النوم عن عينيه :

– حسنا .. لقد انتهى كل شىء بينكما الآن . وهذا هو المهم . انك لم تحب فى حياتك ولا تعرف ما هو الحب .

فامسك الشاب الموشك على الرحيل برأسه بين يديه وحاول أن يقول شيئا .

وبعد فترة صمت ، قال :

– لم أحب فى حياتى ؟ نعم .. هذه هى الحقيقة .. اننى لم أحب فى حياتى . ولكننى أتمنى أن افعل هذا . وليست هناك

امنية اعظم من هذه الامنية . ومرة اخرى اسأل .. هل الحب موجود حقا ؟ ان هناك شيئا ناقصا فى كل عاطفة حب بين رجل وامراة .. وهذا الشيء الناقص هو الذى يجعل كل حب وهما .. ولكن انتهى كل شيء كما نقول .. واشعر الآن اننى مقبل على حياة جديدة .

وعندئذ قال الشاب الطويل الراقد على المتكأ يداعب سلسلة مفاتيحه :

ـ لكى تملأها مرة اخرى بالمشكلات .

ولكن الشاب المسافر تجاهله وقال :

ـ اننى حزين وسعيد لهذه الرحلة .. وانا اعرف لماذا انا سعيد اما لماذا انا حزين ، فلا اعرف .

وراح يتحدث لنفسه وكانما لايوجد فى الغرفة سواه .. وفجأة فتح الباب ووقف فيه تابع شاب فى سترة من فراء الغنم ، ومطرف صوفى حول عنقه . وقال للشاب المسافر :

ـ أولفين ديمترى اندريفتش .. ان سائق الزحافة لم يعد يطيق الانتظار . والجياد واقفة منذ الساعة الحادية عشرة مساء ، وهى الآن تقترب من الرابعة .

ونظر اولفين ـ الشاب المسافر ـ الى تابعه فانيوشا .. ثم قال :

ـ نعم يافانيوشا .. لقد حانت لحظة الوداع .

وتبادل الشبان الثلاثة القبلات . وشرب أولنين ثمالة كأسه ، ثم صافح صديقه القصير النحيل بحرارة .. وقال له وهو مضطرم الوجه :

ـ لسوف اكون صريحا فى حديثى الآن ، وهذه الصراحة نابعة من حبى لك . انك تحبها اليس كذلك ! لقد كنت اعتقد انك تحبها من اعماق قلبك فهل انا على صواب ؟ .

فقال الشاب القصير النحيل بصوت هادىء :

ـ نعم

ـ اذن أرجو أن تسعد بها وتسعدها .

ودخل خادم الحانة وقال بصوت يغلب عليه النعاس :

ـ معذرة أيها السادة . لقد حان وقت اطفاء الأنوار .

ثم استدار الى الشاب الطويل .. واردف قائلا :

ـ هل أقدم لك ياسيدى قائمة الحساب ؟.

ـ نعم .. كم ؟!.

ـ ستة وعشرين روبلا .

وبينما كان الشاب الطويل يدفع الحساب ، خرج المسافر وصديقه القصير النحيل الى الردهة .. وكان هذا يقول :

ـ وداعا يا صديقى العزيز .

وظفرت الدموع الى عيون الصديقين .. واستدار أولنين الى الشاب الطويل حين لحق بهما وقال :

ـ لقد دفعت الحساب ! حسنا .. أرجو أن تضيفه الى قائمة مصروفاتى عندما ترسل الدفعة الأولى من ايرادى الى .

ـ سمعا وطاعة .. آه .. لشد ماأحسدك على هذه الرحلة يا أولنين .

وجلس أولنين فى الزحافة .. وافسح بجانبه مكانا وقال للشاب الطويل :

ـ اذن لماذا لاتأتى معى ؟. هلم اركب .

ولكن هذا تجاهل الدعوة وقال :

ـ ليكن الله معك يا أولنين .. وداعا .

وقرقع السائق بسوطه .. وانطلقت الزحافة بصريرها على جليد الشارع ..

وقال أحد الصديقين للآخر:

ـ انه شاب لطيف.. أولنين! ولكن ما أغرب قيامه بهذه الرحلة الى القوقاز ! لماذا القوقاز بالذات ؟ ومتطوعا فى الجيش المرابط هناك أيضا ! اننى شخصيا لا أستطيع ان أفعل هذا مهما يكن الثمن ..

وبعد برهة صمت ، أردف قائلا:

ـ هل ستتعشى فى النادى ؟..

ـ نعم ..

وشعر المسافر أولنين بالدفء .. بل بالحرارة المنبعثة من سترته المصنوعة من فراء الغنم .وكان جالسا فى أرضية الزحافة، وقد فتح أزرار سترته ، بينما أخذت الجياد الثلاثة الغزيرة الشعر تجر سيقانها من شارع مظلم الى آخر . شوارع لم يرها أولنين من قبل .. ولكنها كما خيل اليه ، لابد من أن يمر بها كل مسافر فى طريقه الى خارج المدينة فى رحلة طويلة. وكان الظلام المحيط به مطبقا ومثيرا للانقباض .. أما النفس فكانت زاخرة بالذكريات ذكريات الحب .. والندم .. والشعور بالقدرة على كبت الدموع .

الفصل الثاني

الرحلة

ظل أولنين يكرر القول لنفسه :

ـ اننى احبهم .. أحبهم جدا .. انهم أصدقاء طيبون .

ولكن .. لماذا كان يرفض أن يبكى . ومن هم هؤلاء الأصدقاء الطيبون ؟ انه لم يكن يعرف على وجه اليقين . وكان بين الحين والآخر يتلفت حوله وينظر الى بعض المنازل ويتساءل لماذا شيدت على هذا الطراز .. وأحيانا كان يخامره العجب والتساؤل لماذا يجلس السائق وفانيوشا قريبين منه ، ولماذا يتارجح فى هذه الزحافة فوق هذه الشوارع الجليدية .. ومرة أخرى كان يقول لنفسه :

ـ أصدقاء من الدرجة الأولى .. ما أشد حبى لهم .

وخيل اليه انه مخمور .. ولكن لا .. حقا لقد شرب بضع كؤوس من الخمر .. الا أن احساسه هذا الجديد لم يكن نابعا من الخمر ، وانما من شيء آخر . لقد تذكر كلمات الوداع والمصافحة .. والنظرات المبللة بالدموع ، والصمت ، انهم جميعا يحبونه ، حتى الذين كانوا يكرهونه .. تماما كما يحدث للانسان المحتضر عند ساعة الاعتراف .. ومن يدرى ، فلعله لن يعود من رحلته هذه ابدا ..

ولكنه فى أعماق نفسه كان يشعر أن احساساته هذه لم تكن نابعة من الحب لأصدقائه ومعارفه ، ولا من الحب لهذه الفتاة « التى لم يحبها قط » وانما من الحب لنفسه .. الحب للحياة الجديدة المشرف عليها .. الحب لكل ماهو خير فى نفسه ، ولم يعد فى تلك النفس شيء غير الخير .. وان هذا الشعور ليرغمه على اطلاق الدموع الحبيسة فى عينيه .

كان أولنين شابا ترك دراسته الجامعية قبل اتمامها ، ثم اشتغل موظفا فى هذه الادارة الحكومية او تلك . وقبل ان يبلغ الرابعة والعشرين من عمره كان قد ضيع نصف ثروته الطائلة . وعلى الجملة كان واحدا من هؤلاء المعروفين فى موسكو باسم « الطبقة الراقية » !.

كان منذ الثامنة عشرة من عمره متحررا من كل القيود بعد أن مات والداه تاركين له ثروة كبيرة . وهكذا انطلق فى الحياة يفعل مايشتهى بلا قيود مادية أو اخلاقية .. بلا قيود عائلية أو اجتماعية .. بلا ايمان بالحب .. لم يكن يعرف شيئا اسمه الحب بين رجل وامراة .. وانما هى الغريزة التى تحكم هذه العلاقة فقط . ومع هذا كان يشعر بالحرج والارتباك أمام كل فتاة وسيدة جميلة يراها لأول مرة . ورغم احتقاره للألقاب وذوى المراكز الكبيرة ، الا انه كان يشعر بالزهو كلما تلقى دعوة من عظيم او أمير لحضور احدى الحفلات . وكان اذا شعر ان مغامرة ما او اى حدث سيؤدى الى تقييد حريته فى التصرف ، أسرع بالتخلص من الموقف قبل أن يتمادى فيه .. وهكذا كان ينطلق كالطائر الحر فى المجتمع الروسى ، الا أن هذا الانطلاق كان سببا لضياع نصف ثروته ، ووقوعه فى كثير من المشكلات الناتجة عن علاقات بالنساء مما أدى به فى النهاية الى مشكلة خطيرة مع احدى فتيات المجتمع الروسى ، ولم يكن هناك من سبيل للخروج من هذه المشكلة الا القيام برحلة طويلة تهدأ خلالها صيحات الاستنكار ويسترد بعدها مكانته فى المجتمع ، وحتى بدء هذه الرحلة كان يشعر انه عاش حياته فى سلسلة من الاخطار وانه لم يستطع أن يصنع لنفسه هدفا فى الحياة .. ولكنه ، مع بدء هذه الرحلة ، شعر انه سيبدأ

حياة جديدة ، بلا أخطار ، وبلا نزوات وبلا ندم .. وانما حياة لها هدف .. ولها طابعها الخاص من السعادة .

وهكذا كان احساس أولنين فى أول صباح اشرق عليه وهو ماض فى رحلته الطويلة .. انه يترك وراءه ذكريات مرحلة من حياة مليئة بالأخطار والنزوات ، ويبنى فى خياله قصورا فى الهواء !.

ولما تركت الزحافة المدينة وراءها واندفعت فى طريق زراعى تمتد على جانبيه اراض واسعة مكسوة بالجليد ، شعر أولنين بالغبطة والرضى ، ودثر نفسه جيدا بسترته وبغطاء صوفى ، ورقد فى قاع الزحافة لينام . ولكن اهتياج مشاعره جعل النوم عسيرا عليه .. وعادت الذكريات تتزاحم فى ذهنه . ذكريات الأصدقاء .. والسهرات .. والديون المتراكمة عليه .. والحب الأخير .. آه .. لقد ظن يوما أنه وقع أسيرا لحب هذه الفتاة الثرية .. ولكنه صحا ذات يوم واذا هو متحرر من هذا الحب .. واذا هو سعيد .. ان قيود الحب لا تفترق كثيرا عن قيود السجن .. وما اسعد الانسان الذى يستطيع أن يحطمها وينجو منها ! ومع أن هذه الفتاة كانت على استعداد لأن تتزوجه رغم ديونه ، ورغم أن الزواج منها كان سيحرره من قيود هذه الديون ، الا انه فضل قيد الدين على قيد الزواج من فتاة لا يحبها . ان قيد الدين يمكن أن يتحرر منه بعد عام من الحياة المتقشفة الخالية من السهرات الحمراء ومن الاسراف فى شرب الخمر ، ومن البعد عن موائد الميسر .. أما قيد الزواج من فتاة لا يحبها فكيف ومتى يمكنه التحرر منه ؟.

قرر ان يعيش عاما بعيدا عن اضواء المجتمع .. ودبر له أمن هذه الرحلة الى القوقاز جماعة من أصدقائه .. بينهم شاب من حاشية القيصر نفسه . وهكذا قبل تطوعه فى الحامية المرابطة فى القوقاز ، ومن يدرى .. فلعله يقوم بأعمال بطولية تجعله جديرا بوسام وبلقب كولونيل فى الحرس القيصرى .

ووصل اولنين مع الضحى الى المخفر الثالث فى الطريق ، فشرب فيه بضعة أقداح من الشاى وساعد فانيوشا فى اعادة وضع الحقائب والحاجيات ثم الاستقرار بينما يحسب المسافة التى

اقطعها ؟ والمسافات الباقية حتى نهاية الرحلة .. المسافة الى كل مخفر .. والمسافة الى كل مدينة ، والأماكن التى سيتناول فيها افطاره أو غداءه أو عشاءه ، والحانات التى سيبيت فيها لياليه .. وفى الوقت نفسه كان يحسب ايراده من املاكه الواسعة فى ذلك العام .. وكم سيحتاج من مبالغ لتسديد ديونه ، وكم سيحتاج للحياة فى القوقاز ، وكم سيتبقى بعد ذلك !.

وتنهد فى ارتياح عندما أدرك انه يستطيع تسديد ديونه كلها فى ثمانية أشهر ، وأن يتسلم فى كل شهرين الف روبل . وان يتبقى له بعد ذلك أكثر من عشرة آلاف روبل يبدأ بها مرحلة جديدة من الحياة .

وتطلع بخياله الى ارض القوقاز .. انه لم يزرها من قبل .. ولكنه سمع الكثير عن شجاعة رجالها ، وعن جمال نسائها ، وعن خشونة الحياة فيها .. وقرر فى نفسه أن يحيا فيها حياة خالية من كل خطأ .. أن الخطأ فى بلاد كهذه قد يكلفه حياته .. وهو فى هذه السن أحرص ما يكون على هذه الحياة !.

وامتد به الخيال الى كوخ جميل ، والى زوجة قوقازية حسناء موفورة الشباب والقوة .. تنتظره على مدخل الكوخ حين يعود اليها فى المساء مغبرا ، مكللا بالمجد ليتلقى قبلاتها ، وضماتها وليقضى معها فى ضوء القمر امسية جميلة .

ومن يدرى .. فلعله يعود بها الى موسكو ليعلمها اللغات وآداب المجتمع ، ويجعل منها كوكبا لامعا فى سماء المجتمع الروسى بموسكو .

وفى صباح اليوم التالى ، تكرر هذا كله مرة أخرى .. المناظر .. والمخافر ، والأراضى الشاسعة على الجانبين .. والاستراحات .. وشرب الشاى ، والذكريات .. والآمال !.

ويقبل الليل .. ويغلب النوم أولنين على أمره .. ليعود مرة أخرى مستيقظا فى صباح جديد !.

***

كان أولنين يشعر انه كلما ازداد بعداً عن وسط روسيا، ازدادت ذكرياته القديمة بعداً عن ذهنه ، وكلما اقترب من أرض القوقاز ازداد احساسا بالبهجة والأمل . وكثيرا ما خطرت بباله فكرة الاستقرار نهائيا فى القوقاز وعدم العودة الى موسكو اطلاقا .. وكان يقول لنفسه فى هذا الشأن :

ـ ان الناس هنا لا يعرفون عنى شيئا .. ليس بينهم أحد سبق له الذهاب الى موسكو ، أو يحتمل أن يذهب اليها .

وعندئذ كان يخامره شعور بهيج جديد بالتخلص من ماضيه كله .. من ديونه .. وأصدقائه المنتفعين بثروته .. ومن نفاق المجتمع .. ومن يدرى .. فلعل هذا ما سوف يحدث ! هكذا كان يحدث نفسه .

ولما وصل الى القوقاز السفلى ، استبدل بالزحافة مركبة بريد حتى اذا ترك مدينة سنائروبول وراءه ، اشتدت حرارة الجو مما جعله يخلع سترته الوبرية ـ آه .. انه يعيش فى جو ربيعى .. ربيعى ناضر جميل عاطر الهواء بالشذى الفواح من الزهور .

وفى المساء كان الحراس يحذرونهم من الخروج الى ما وراء هضاب القوقاز ، حتى لايقعوا فى أيدى عصابات قطاع الطرق من قبائل التتار . وأثارت هذه التحذيرات فى قلب فانيوشا الخوف والقلق ، وجعلته ينام وبندقيته المحشوة بالبارود بجواره . أما أولنين ، فكان يزداد احساسا بالبهجة والرضى . وفى احدى المخافر ، قال لهم الحارس ان جريمة قتل رهيبة وقعت فى الطريق الجبلى خارج المناطق الآهلة .. ولما استأنفوا السفر فى اليوم التالى ، لاحظ أولنين ان الرجال جميعا كانوا يسيرون مسلحين بالبنادق والخناجر والسيوف ، وقال لنفسه « الآن وصلنا الى برارى القوقاز » وراح يحدق فى الأفق البعيد آملا أن يرى فى أية لحظة جبال القوقاز المتوجة بالثلوج التى طالما سمع عنها . وفى ذات مساء أشار سائق المركبة الى قمم وراء السحب ، فنظر أولنين اليها بلهفة ولكنه راى السماء ملبدة بالغيوم التى أخفت وراءها الجبال . ومن ثم لم يستطع الا أن يرى أفقا رماديا تتخلله سحائب بيضاء

وعبثا حاول أن يرى شيئا من الجبال فى تلك الركام الرمادية .. وخيل اليه ان ألوان الجبال التى طالما سمع بها عن جبال القوقاز المتوجة بالثلوج ليست الا شيئا من صنع الخيال ، مثل موسيقى باخ ، ومثل الحب ، وكلاهما لا يؤمن به .

ولكنه حين استيقظ مبكرا فى صباح اليوم التالى بأحد المخافر ، فوجىء وهو يلقى نظرة عابرة الى اليمين ، برؤية قمم هائلة ناصعة البياض قريبة منه ، وكأنها لا تبعد عنه غير بضع خطوات .. وكان الجو صحوا والهواء منعشا والرؤيا واضحة .. وبدت له هذه القمم الناصعة كأنها عند متناول يديه برغم أنها فى الواقع كانت تبعد عنه مئات ومئات من الأميال . ولما أدرك مدى بعدها عنه ، ومبلغ ضخامة هذه الجبال ، خشى أن يكون الأمر كله حلما أو سرابا .. ومن ثم راح يؤكد لنفسه أنه يقظان ، وأن ما يرى ليس الا حقيقة لا سبيل الى انكارها .

وسأل سائق المركبة مشيرا اليها :

ـ ما هذا .؟ ما هذا ؟.

فقال السائق بغير اهتمام :

ـ عجبا ! انها الجبال .

وقال التابع فانيوشا :

ـ لقد ظللت انظر اليها مدة طويلة .. أليست رائعة ! انهم لن يصدقونى حين اعود الى موسكو واحدثهم عنها .

واستمرت المركبة فى طريقها حتى اقتربت من نهر تيريك .. ورأى أولئين رجالا ونساء جميلات من قبائل القوقاز .. وقال لنفسه فى النهاية :

ـ هانذا أمضى فى براري القوقاز غير خائف .. ولماذا أخاف ومعى بندقيتى ، وشبابى .. وقوتى .. وهذه الجبال الشامخة !.

الفصل الثالث

القوزاق

كانت قرى القوزاق العليا تتناثر على ضفة نهر تيريك اليسرى ى مسافة خمسين ميلا طويلا ، وكان نهر يتريك الذى يفصل بين بائل القوزاق ، وبين قبائل التتر الجبلية ينطلق فى مجرى عريض حف به من الجانبين نباتات الغاب العالية ، وأشجار البلوط والحور ، ادغال النباتات المتسلقة ، اما الضفة اليمنى ، فكانت تتناثر عليها ؛ وعلى الهضاب والتلال الممتدة منها الى الجبال قبائل التتر الروسية . أما قرى القوزاق ، نكانت تقع بعيدا عن الضفة اليسرى بمسافة نصف ميل تقريبا ، وبين كل قرية وأخرى نحو ستة أو سبعة أميال . وعلى طول هذه الضفة اليسرى ، كانت تقوم مخافر الحراس القوزاقيين الذين يؤدون مهمة طرد عصابات التتر التى اعتادت أن تغير بين الحين والآخر على قرى القوازق . أما فى الشمال فكانت تبدأ صحراء نوجاى أو هضبة مزدوك التى تمتد الى مناطق التركمان . واما فى ناحية الجنوب ، بعد نهر تيريك ، فكان يمتد نهر شيسكنايا ، ثم سلسلة جبال كوشكاليكوف . ثم الجبال السوداء ، ثم القمم المكسوة بالثلوج ، التى يراها الناس فقط ، دون ان يصلوا اليها .

والقوزاقى قد يحترم ويحب عدوه الجبلى ، ولكنه يكره الجندى

الروسيين المرابطين فى بلاده ، لانهم يرمزون للضغط والاحتلال والقهر والتسلط وتقييد حريته ، بل ان القوزاقى يعتبر الفلاح الروسى قريبا عنه ، دخيلا عليه ، متطفلا على أرضه . وقبائل القوزاق ترى أن افضل الأسلحة هى التى يشترونها من قبائل التتر الجبلية ، أو يظفرون بها منهم فى المناوشات الحربية. وكذلك كانوا يعتبرون أن أحسن الجياد هى جياد تلك القبائل التى يحصلون عليها بالثمن أو بالسرقة . والشاب القوزاقى يفخر ويزهو على أخوانه حين يتقن الحديث باللغة التترية . وكذلك رجال التتر لم يكونوا يحترمون أحدا ولا يحفلون بأحد الا بالقبائل القوزاقية ..

والقوزاقى يشغل وقته أما جنديا فى أحد مخافر الحراسة ، أو فى الصيد داخل الغابات أو فى صيد السمك .. أو فى الحملات الحربية وهو قلما يعمل شيئا فى القرية .. انه لا يذهب الى قريته الا بين الحين والآخر .. وحين يذهب اليها ، فانما ليقضى فترة من الراحة والاستجمام اذا كان متزوجا ، وفترة من الحب والغزل مع بنات القرية ان كان أعزب .. والقوزاق يصنعون خمرهم بأيديهم من كروم العنب التى يزرعونها بكثرة . وهم لا يشربونها بادمان ، ولا الى حد السكر . والقوزاقى ينظر الى المرأة كأنها مخلوق لملك يديه .. ولكن الحقيقة هى أن المرأة تكاد تكون كل شىء فى حياة الرجل القوزاقى .. انها هى التى تشرف على شئون البيت وتربية الاولاد ، وهى التى تقوم بالعمل فى المزارع والحقول ، وهى على الجملة أقوى احتمالا من الرجل ، واذكى ، واكثر اتزانا ، وأقدر على العمل .

والرجل القوزاقى يرتدى قلنسوة وصديرية فوقها سترة من الوبر شتاء ، وسراويل خفيفة . أما المرأة ، فانها تعصب رأسها بمنديل زاهى اللون يصل الى عينيها ، وتخفى نصف جسمها الأعلى بصديرية محكمة تبرز جمال الصدر ، وتحتها جلباب طويل من الحرير الطبيعى الملون .

ويعيش القوزاق على محصول أرضهم من الكروم والأعناب والفواكه والبطيخ والخضروات والسمك وصيد البر والاذرة والبقول .

وقرية نوفوملسك التى تقرر أن يذهب اليها أولئين ، تقع على ميلين ونصف ميل من ضفة نهر تيريك .. وهذه المسافة التى تفصلها عن النهر عبارة عن غابات كثيفة الأشجار ، ملتوية الممرات والدروب ، لا يستطيع السير فيها الا الرجل المدرب عليها ، وعلى جانب الطريق الرئيسى فى الغابة يجرى جدول مائى عذب ، وتمتد على ضفته الأخرى بساتين الكروم حتى تصل الى حافة صحراء نوجاى . أما القرية فهى محاطة بالحقول وبالأراضى الجرداء وبالنباتات البرية المختلفة ،ويمكن الوصول اليها من ناحيتين ،لكل ناحية بوابة كبيرة عالية يحرسها مدفع من طراز قديم ظفر به القوزاق فى احدى المعارك الحربية القديمة . ويقوم على حراسة كل بوابة قوزاقى فى ملابس عسكرية كاملة . ولكن الحارس كثيرا ما يتركها ليمضى الى الغابة لصيد الحيوانات البرية أو السمك . وتوجد على البوابة الرئيسية لوحة بيضاء مكتوب عليها هذه الارقام: عدد المنازل ٢٦٦ وعدد السكان الذكور ٨٩٧ وعدد السكان الاناث ١٠١٢ . وتقوم أكواخ القرية القوزاقية على دعائم ترتفع عن الارض نحو قدمين ونصف قدم . وهى مشيدة من خشب السنديان ومسقوفة ببراعة بالقاب المتين . ويتكون كل كوخ من غرفة أو اثنتين ، واحيانا من ثلاث .. والغرفة المخصصة للفرن تكون أرضيتها من البلاط الذى يتحمل الحرارة ، وتقع بين كل مجموعة من الاكواخ حارة أو زقاق أو شارع ضيق . كما تقوم حولها أشجار تظللها وتشيع فى أجوائها شذى الازهار . وتكثر فى القرية نباتات عباد الشمس الذى يتسلى ببذوره (١) شباب القرية وفى الميدان الفسيح فى وسط القرية تقوم ثلاثة حوانيت لبيع بذور عباد الشمس والحلوى وبعض البقول . أما بيت الكولونيل قائد الحامية فهو أكبر البيوت ، ويقوم وراء عدد من الأشجار العالية وله نوافذ وشرفات تؤدى الى حديقة واسعة . وتبدو شوارع القرية فى أيام الأسبوع خالية ، لأن سكانها ينصرفون عنها الى أعمالهم المختلفة ، الى الحقول او الغابات أو مراكز الحراسة . ولا يبقى فى القرية الا العجائز والاطفال والمرضى .

(١) بذور عباد الشمس تشبه اللب الذى يتسلى به شباباوأطفالنا

وفى أمسية من الأمسيات المألوفة فى القوزاق ، عندما بدأت الشمس تختفى وراء الجبال وترسل أشعتها النارية الحمراء الى السماء وتلون السحب بالألوان القرمزية المتدرجة ، أخذ سكان القرية يهرعون فى العودة اليها قبل أن يداهمهم الليل المليء بالمخاوف فى سمت الوحوش البرية والعصابات الجبلية . وهكذا لاح كأن القرية تستيقظ من سبات الأصيل لتستقبل العائدين من الحقول والغابات . النساء يسرعن حاملات المحاصيل ، والفتيات يقدن المركبات التى تجرها الثيران والأبقار ، والرجال يمضون راجلين أو على متون الجياد .. وتمتلىء شوارع القرية بالرجال والنساء والمركبات والابقار وأسراب الناموس والزنابير ، ويمتلىء الجو بالأحاديث والضحكات ، وبين الحين والآخر يرى جندى قوزاقى يمضى بجواده الى نافذة كوخ فيطرق عليه ، فاذا أطلت منه احدى الفتيات ، راح يتبادل معها همسات الغزل ويتواعد معها على اللقاء ليلا .

وينتشر الأطفال والغلمان يصرخون ويلعبون « النحلة » وترتفع أصوات الرجال بالدعابات ، وتتصاعد من مداخن الأكواخ سحب الدخان التى تنم عن الأفران الموقدة لاعداد طعام العشاء .

وكانت العجوز أولتيكا زوجة الضابط المتطوع بالتدريس فى مدرسة الحامية العسكرية ، قد خرجت من كوخها ، كغيرها من النساء العجائز ، ترقب ابنتها الشابة الحسناء ماريانكا وهى تقود المركبة من الحقول الى ساحة الكوخ . وما كادت الجاموسة الضخمة تقترب من الكوخ حتى اندفعت الى الساحة وهى تخور بسرور حين رأت سيدتها العجوز .. وفيما كانت ماريانكا تعمل على فصل الجاموسة والبقرة من المركبتين ، وتدفع بهما الى المربط ، هتفت بها أمها قائلة :

ـ اخلعى حذاءك يا ماريانكا حتى لا يبلى بسرعة من كثرة الاستعمال .

ولكن ماريانكا لم تغضب ، وانما ابتسمت وأسرعت الى المربط حاملة أوعية اللبن لتحلب الجاموسة والبقرة . وبعد أن فرغت

اسرعت الى الفرن .. ووقفت الام بباب الكوخ ترقب الحياة وهى تنبض بقوة فى انحاء القرية قبل أن تهدأ مرة أخرى عند انسدال الليل .

ومن الكوخ المقابل عبر الشارع اقبلت سيدة طويلة القامة قوية البنية الى العجوز أولتيكا تلتمس منها عود ثقاب .. وقد قالت :

ـ طاب مساؤك يا صديقتى .. هل فرغت من عملك ؟.

ـ ان ماريانكا تضرم النار فى الفرن .

ثم اردفت قائلة وهى تشعر بالزهو لانها ستسدى صنيعا لجارتها :

ـ هل تريدين عود ثقاب يا صديقتى ؟.

ودخلت المرأتان الكوخ ، وفتحت أولتيكا علبة الثقاب بيد مرتعدة ، وقدمت لجارتها عودين فقط ، لأن الثقاب كان من السلع النادرة التى يعسر الحصول عليها فى بزارى القوزاق . وبدا أن الجارة لم تحضر للثقاب فقط ، وانما لتثرثر قليلا مع جارتها العجوز أولتيكا . ومن ثم جلست فى استرخاء وقالت :

ـ الا يزال زوجك العزيز غائبا فى المدرسة ؟.

فقالت أولتيكا زوجة المدرس :

ـ نعم .. انه لا يزال يعلم الشباب .. وقد كتب يقول انه سيحضر فى الاجازة .

ـ انه رجل مثقف جدا .. وهو يقوم بعمل مهم يا صديقتى .. أليس كذلك ؟.

ـ نعم .. حقا .

ـ ان ابنى ليوكا لا يزال حارسا فى المخفر .. وهم لا يسمحون له بالعودة الى البيت هذه الأيام .

ولاح بوضوح ان الجارة جاءت لتدير الحديث وتركزه حول

ابنها ليوكا الذى التحق منذ عهد قريب بالجيش ، وأصبح أحد حراس المخافر فى القوقاز .. وكانت أمه ترغب فى زواجه من ماريانكا ابنة جارتها أولتيكا .

وقالت أولتيكا :

ـ اذن فهو لا يزال فى المخفر ؟ .

ـ نعم يا صديقتى .. انه لم يعد منذ الاجازة الماضية .. وقد أرسلت اليه اول أمس مع صديقه فوشكين صديرية وقميصا . وقد قال لى فوشكين أن ليوكا بخير ، وان الضباط يحبونه ، وقال أيضا انهم فى المخفر يتربصون للتتر ، وان ابنى سعيد بعمله جدا .

فقالت أولتيكا زوجة المدرس :

ـ آه .. شكرا لله على هذا .. لاشك أن ابنك جدير بلقب « الخطاف » .. وهو اللقب الذى اطلقه عليه أهل القرية .

وكان أهل القرية قد أطلقوا هذا اللقب على ليوكا عندما استطاع أن « يخطف » غلاما من النهر قبل أن يغرق . وكانت أولتيكا تهدف بحديثها عن ليوكا الى ارضاء أمه .

وقالت الأم بصوت ينم عن الرضى :

ـ انى احمد الله فى كل يوم لانه اعطانى ابنا طيبا . انه شاب ممتاز والجميع يحبونه ويثنون عليه .. وان أملى الوحيد قبل الموت ان اراه متزوجا من فتاة جميلة بارعة .

قردت العجوز أولتيكا فى صوت ينم عن المكر وهى تعيد بأصابعها المعقدة الغطاء الى علبة الثقاب :

ـ حسنا .. أليس فى القرية بنات كثيرات ؟! .

فأومأت أم ليوكا برأسها وقالت :

ـ نعم .. كثيرات يا صديقتى .. كثيرات . وهاهى ذى ابنتك

ماريانكا .. انها عذراء جميلة ، وان الانسان ليحتاج الى سنوات لكى يجد من هى أجمل منها .

وكانت زوجة المدرس تعرف الهدف الذى تسعى اليه أم ليوكا، ورغم موافقتها هى على هذا الهدف ، الا انها رأت أن تتمنع قليلا ، لانها ، أولا ، زوجة مدرس ميسور الحال ، بينما ليوكا ابن فوزاقى من العامة ، ومتوفى أيضا ! ولانها ، ثانية ، لم تكن على استعداد الافتراق عن ابنتها بسرعة . ومن ثم قالت فى تحفظ :

ـ نعم .. عندما تكبر ماريانكا سنفكر فى أمر زواجها .

وقالت أم ليوكا :

ـ لسوف أرسل اليك الخاطبة فى أقرب وقت . نعم .. هذا ما سأفعله .. وعندما نجمع محصول العنب ، سوف أكون تحت أمرك . سآتى اليك ونتحدث فى هذا الأمر مع زوجك الطيب .

فقالت أم ماريانكا فى ترفع :

ـ وما جدوى الحديث مع زوجى . ان أمر زواج ماريانكا بيدى أنا . ولكن لنترك هذا كله للوقت المناسب .

ولما رأت الزائرة أمارات الحزم على وجه جارتها ، نهضت بسرعة لتنصرف وهى تقول :

ـ حسنا يا صديقتى .. لا تنسى هذا الموضوع ، وفكرى جيدا فيما تحدثت به اليك .. والآن ، يجب أن أسرع بالعودة لأضرم الفرن وأعد العشاء .

وفيما هى تنصرف ، قالت لنفسها حين رأت ماريانكا فى ساحة الكوخ :

« آه .. هذه هى الزوجة التى أتمناها لابنى ليوكا .. انها ملكة جمال .. وقد حان وقت زواجها لتكون ربة أسرة ، وزوجة لابنى ليوكا .. »

الفصل الرابع

الصياد العجوز

كان رجال القرية يشغلون وقتهم بالاعمال العسكرية ، ولا سيما أعمال الحراسة فى المخافر وعند اقتراب المساء ، كان ليوكا ـ الخطاف ـ الذى دار حوله حديث المراتين ، واقفا فى برج المراقبة بمخفر نيزن برونسك القائم على الضفة اليمنى لنهر تيريك. كان معتمدا على سياج البرج ، يمد البصر الى ما وراء النهر حينا ، والى زميله الواقف فى أسفل البرج حينا آخر ، حيث كان يتبادل معه الحديث ، بين آن وآخر . وكانت الشمس قد غابت وراء القمم المتوجة بالثلوج ، واخذت السحب تتجمع فى السماء . وطاب الهواء بعد وقدة الحر ، وانسابت من الغابات نسائم رطبة منعشة ، ولكن الجو حول المخفر كان لا يزال حارا . وارتفعت اصوات الحراس القوزاقيون وهم يتبادلون الحديث ، واخذت ترفرف فى الجو كأنها أصوات عدد من الطيور البرية . وكانت ضفة النهر أمام المخفر مهجورة ، ليس فيها الا نبات القاب . . أما فى الضفة الأخرى فكانت النباتات تمتد صاعدة الى سفوح الجبال التى تقوم فيها قرى التتر .

وعلى البرج وقف ليوكا ـ الخطاف ـ بقامته الطويلة ووجهه الوسيم الذى ينم عن القوة والفتوة . وكان ـ رغم حداثة عهده بالجيش ـ قد أبدى من ضروب الشجاعة ما جعله مرموقا بين

اخوانه . وفى وقفته هذه لمح من بعيد نساء احدى القرى التترية يخرجن جماعات ، فقال وكأنه لا يحدث أحدا معينا :

ـ ترى لماذا تخرج هؤلاء النساء هكذا جماعات .

ورد صديقه نازار الذى كان مسترخيا فى جلسته تحت البرج :

ـ من اجل الحصول على الماء من النهر .

فضحك ليوكا وقال :

ـ ما رايك لو افزعتهن برصاصة من بندقيتى .

ـ ان بندقيتك لا تصل الى هذا المدى .

فقال ليوكا وهو يذب عنه الزنابير المحلقة حوله :

ـ اهذا رايك ؟ ان بندقيتى تجاوز هذا المدى .

ثم اردف بعد برهة صمت :

ـ عندما يحتفلون بعيدهم الكبير ، سوف اذهب الى صديقى جيرى خان ، احد أعيانهم واشرب معه زجاجة من جعتهم .

وسمع الصديقان حفيفا فى النباتات القريبة منهما. ثم ما لبث ليوكا ان راى كلب صيد مرقط يسرع نحوهما وقد ادنى انفه من الارض ، فعلم فورا انه كلب الصياد العجوز ايروشكا . وما هى غير لحظة حتى برز الصياد نفسه من أدغال الغاب فى طريقه الى المخفر .

وكان الصياد ايروشكا قوزاقيا ضخم الجسم ، غزير اللحية ابيضها عريض الكتفين ، طويل القامة . وكان يرتدى سترة ريفية ممزقة ، مشدودة بحزام عند الوسط ، ويضع على راسه قلنسوة من الجلد ، وينتعل حذاء من جلد الغزال مشدودا الى ساقيه بالاربطة . وعلى كتفه كان يحمل شبكة يختفى وراءها عندما يذهب لصيد البط البرى ، وحقيبة فيها دجاجة صغيرة لاغراء البوازى .

وعلى الكتف الاخرى كان يحمل قطة برية ضخمة صادها فى يومه ذاك . اما حزامه الجلدى العريض فكان مليئا بالجيوب التى تحتوى على الرصاص والبارود ومدية لطرد الهوام وخنجر فى غمد عليه بقايا دماء قديمة . وكان يحمل فى احدى يديه بندقيته ، وفى الأخرى بطتين بريتين .

ولما رأى المخفر ، توقف وصاح قائلا لكلبه بصوت جهورى رنان :

ـ مهلا يا ليام .

ثم رفع قبعته الى كتفه وقال لحراس المخفر بنفس الصوت الجهورى الرنان وكأنه يتحدث الى اشخاص فى الجانب الآخر من النهر :

ـ طاب ليلكم أيها الأبناء .

وارتفعت الأصوات من كل جانب فى مرح :

ـ طاب ليلك أيها الصياد ايروشكا .

وقال الصياد وهو يمسح بكم سترته العرق عن وجهه العريض

ـ ماذا وراءكم من انباء أيها البواسل ؟.

وغمز نازار بعينه وقال :

ـ يوجد فى مكان قريب « بازى » شديد البأس فى حاجة الى صياد بارع يقضى عليه .

فقال العجوز :

ـ كفى كذبا يا نازار .

ـ انتظر وسوف ترى بنفسك .

وضحك الحراس القوزاق الآخرون . وكان من عادتهم يسخروا من الصياد العجوز كلما رأوه . وقال ليوكا فى لهجة استنكار :

ـ آن نازار يا ايروشكا يكذب كعادة الحراس .

وصمت نازار ، وقال الصياد ايروشكا :

ـ اذا كان هناك ما يحتاج الى المراقبة ، فسوف ابقى بينكم . ولكن .. الم تروا خنازير برية في هذا المكان ؟.

وهنا قال الجاويش وهو يحك ظهره بكلتا يديه :

ـ خنازير برية يا ايروشكا ؟ ماذا تعنى ؟ اننا هنا نراقب التتر عبر النهر ..

وكانت الأنباء قد تواترت بأن عصابة من التتر تنوى الهجوم في تلك الليلة على القرية القوزاقية ، ومن ثم أردف الجاويش قائلا :

ـ الم تسمع شيئا عن نوايا هؤلاء التتر يا ايروشكا ؟.

ـ لا .. لم اسمع شيئا . الديكم بعض الخمر ، اننى فى حاجة الى كأس ، لأنى متعب ولسوف اهديكم ذات يوم بعض البط البرى .. هلم يا ابنائى .. قدموا الى كأسا من خمرنا الحلوة .

فقال الجاويش وكأنه لم يسمع ما قال الصياد :

ـ اذن فانت ذاهب للصيد الليلة ؟.

ـ نعم .. اننى افكر فى قضاء الليلة هنا .. وربما استطعت ان اصيد شيئا ينفعنى فى الأجازة . فاذا حالفنى الحظ ، سوف اعطيكم نصيبكم .. والله يشهد على .

وقال ليوكا بصوت لفت اليه جميع الحراس :

ـ اسمع يا ايروشكا . اذا سرت الى أعلى النهر ، فسوف تجد الظيعا من الخنازير البرية صدقنى . لقد صاد احد زملائنا خنزيرا منها اول أمس . اننى لا اكذب عليك .

وكانت نبرات ليوكا تنم على انه لا يمزح ، ومن ثم قال الصياد العجوز :

ـ آه .. ان ليوكا بينكم كما أرى .. ليوكا الخطاف .. أين رأيت هذه الخنازير البرية يا ليوكا ؟.

فقال ليوكا وهو يهم بالهبوط من البرج :

ـ لسوف آتى معك لأطلعك على المكان الذى قتلنا فيه الخنزير البرى أول أمس .. وقد حان وقت تغيير الحراس الليلة .

وفيما كان ليوكا يمضى الى الصـــياد العجـــوز ، هتف به الجاويش قائلا :

ـ عد الى مكانك يا ليوكا .

فقال ليوكا للجاويش الذى كان يسمى جوركى :

ـ ا ن نوبتك للحراسة يا جوركى قد حانت ..

ثم التفت الى الصياد واردف قائلا :

ـ هلم الى الصيد يا ايروشكا .

***

ولما عاد ليوكا وايروشكا من رحلتهما القصيرة ، كان الليل قد أوغل . وكان الجنود القوزاق قد فرغوا من نوبة حراستهم للمخفر . فاجتمعوا فى حلقة ليتناولوا وجبة العشاء .. وفى خلال هذا كان الصياد العجوز ايروشكا جالسا تحت شجرة يترقب ظهور البازى بعد أن وضع له الدجاجة فى مكان ظاهر ليغريه بها . أما ليوكا ؟ فقد ذهب الى ضفة النهر ، وراح ينصب الفخـاخ بين النبـاتات الغابية ليصيد بها البط البرى .

وسمع ليوكا صوت صديقه نازار ، فى دغل قريب ، يقول له :

ـ ليوكا .. يبدو أن الجميع ذهبوا لتناول العشاء .

ثم برز نازار من الدغل حاملا فى يده بطة برية ، فقال له ليوكا :

ـ أوه .. من أين أتيت بهـذه البطة يا نازار .. لاشـك انها وقعت فى أحد فخاخى .

وكان نازار ـ مثل ليوكا ـ فى نحو الرابعة والعشرين من العمر ، ولكنه كان صغير الجسم ، حاد الصوت ، وكان صديقا وجارا لليوكا . وقد رد قائلا :

ـ اننى لا اعرف على وجه اليقين ..

ـ لقد كانت هناك ، فى الحفرة تحت شجرة الحور .. لقد وضعت فخاخى بها فى الليلة الماضية . انها بطتى لاشك فى هذا.

وكان ليوكا جالسا متربعا ، كالتتر ؛ يضع فخا جديدا بين الاعشاب . ولما فرغ ، تناول البطة البرية من نازار وراح يتحسس عنقها فى ابتهاج ويقول :

ـ لسوف نجعل منها وجبة عشاء فاخرة . خذها واذبحها وانزع ريشها .

ـ هل سنأكلها بمفردنا ام نهديها للجاويش ؟.

ـ لقد اكل الجاويش الآن حتى شبع .

ـ اننى لا أحب ذبح الطيور .

ـ حسنا .. سأذبحها أنا .

ولما فرغ من ذبحها ، القى بها الى نازار وقال :

ـ هلم اصنع لنا منها وجبة شهية .

فتناول نازار البطة بيد مرتعدة وقال :

ـ اسمع يا ليوكا .. ان هذا الجاويش اللعين سوف يرسلنا للحراسة على ضفة النهر الليلة انها نوبة فوشكين ، ولكنه ارسله ليأتى اليه بابريق خمر..الى متى يرغمنا على أن ننوب فى الحراسة عن غيرنا !.

فقال ليوكا متجاهلا حديثه :

ـ امسك هذا الطرف من الشبكة يا نازار .

واطاع نازار الأمر ، ولكنه استطرد يقول :

ـ لسوف اخبره اننا متعبان الليلة .. أو اخبره أنت ، انه ينفذ دائما رغباتك سواء كنت على خطأ او على صواب .

فقال ليوكا بصوت حاد :

ـ ولماذا تهتم بالأمر ؟ لو كنا في القرية نستمتع بوقت سعيد مع النساء ، لكان الأمر مختلفا أما ونحن هنا ، فما الفرق بين وجودنا داخل المخفر او خروجنا للحراسة على ضفة النهر ؟»

ـ هل تفكر يا ليوكا في الذهاب الى القرية ؟»

ـ نعم .. في الاجازة .

ـ ان بوركا يقول ان صاحبتك دانايكا تخونك مع نومشكين »

فكشر ليوكا عن اسنانه وقال :

ـ حسنا .. لتذهب هي وهو الى الشيطان .

فعاد نازار يقول :

ـ لقد ذهب بوركا الى بيتها ذات مساء . وكان زوجها غائبا . وهناك وجد نومشكين معها يأكل الفطير . وبعد أن جلس بوركا برهة معها ، انصرف . وفيما هو يمر تحت نافذتها سمعها تقول لنومشكين « حسنا لقد انصرف هذا الزائر الثقيل .. ما رايك في ان تقضي الليلة معي ولا تذهب الى المخفر ؟» وعندئذ قال بوركا لها بصوت مسموع « هذا افضل طبعا » .

فقال ليوكا :

ـ انك تكذب يا نازار .

ـ اقسم لك انها الحقيقة .

ـ حسنا .. اذا كانت قد وجدت حبيبا آخر ، فلتذهب الى الجحيم ، ان القرية مليئة بالعذارى الجميلات . وانا قد ضقت ذرعا بدانايكا على كل حال .

فابتسم نازار وقال :

ـ انك شاب محبوب من العذارى يا ليوكا .. لماذا لا تتبادل الحب مع ابنة المدرس .. ماريانكا .. انها ليست على علاقة مع أحد في القرية .

فقطب ليوكا جبينه وقال :

ـ ولماذا ماريانكا بالذات . ان كل البنات سواء .

ـ حسنا .. جرب حظك معها .

ـ سوف أحاول . ولكننى مصر على ان القرية مليئة بالعذارى الجميلات .

ثم نهض وسار فى طريقه وهو يصفر بشفتيه الى المخفر . وكان الحراس قد فرغوا من تناول العشاء وراحوا يتناقشون فيمن ينبغى أن يقوم بنوبة الحراسة على ضفة النهر بدلا من فومشكين .

ولما وصل نازار وليوكا ، هتف الجاويش قائلا :

ـ آه .. هاهو ذا ليوكا .. يمكنه ان يقوم بالحراسة بدلا من فومشكين الليلة .. وليأخذ معه نازار .. وكذلك يمكن ان يصحبهما العجوز ايرجوشوف .. لقد نال نصيبه من النوم الليلة .

وقال نازار بصوت خافت :

ـ وانت أيها الجاويش .. ألم تنم طول الليل ؟

وضحك زملاؤه الذين سمعوه .

وفى تلك اللحظة تقدم العجوز ايرجوشوف متعثرا الى الغرفة، فقال له الجاويش :

ـ استعد يا ايرجوشوف للحراسة على ضفة النهر مع نازار وليوكا .

وكان ليوكا قد استعد ووضع بندقيته على كتفه. اما الجاويش فقد صاح بلهجة آمرة :

ـ هلم يا أولاد .. اسرعوا بتنفيذ الاوامر .

وقبل أن يرد أحد أردف قائلا خشية الا تطاع اوامره :

ـ لولا أن الضابط سيحضر الليلة للتفتيش ، لما أرسلت احدا للحراسة . ولكن .. لا .. لقد تواترت الأنباء بأن ثمانية من التتر سوف يتسللون الليلة الى هذه الضفة للاغارة على القرية .. يجب أن نكون مستعدين لهم .

وقال العجوز ايرجوشوف لزميليه :

ـ حسنا .. يجب أن نبدأ الحراسة فورا . ان الاوامر أوامر ، ولا يسعنا الا الطاعة . هلم .

وفي تلك اللحظة ، سمع الجميع صوت الصياد ايروشكا وهو يصيح :

ـ مهلا يا أولاد .. لسوف أذهب معكم .. انتم للحراسة ، وانا لصيد الخنزير البرى .

الفصل الخامس

مصرع التتر

كان الظلام كثيفا عندما سار الصياد العجوز ايروشكا والقوزاقيون الثلاثة بعباءاتهم الوبرية وبنادقهم على اكتافهم ، فى الطريق الى ضفة نهر تيريك ليكمنوا فى المكان الذى يرقبون منه عصابة التتر المغيرة . وكان نازار كارها هذه المهمة ، ولكن ليوكا ظل يحثه حتى اسرعوا الى بقعة على النهر تحيط بها من ثلاثة جوانب نباتات الغاب العالية ، وهنا قال نازار :

ـ مارايكم فى هذا المكمن ؟.

فقال له ليوكا :

ـ لا بأس .. يمكنك أن تبقى هنا ريثما امضى بايروشكا الى المكان الذى تختفى فيه الخنازير البرية .

وقال ايرجوشوف :

ـ ان هذا المكان مناسب جدا .. اننا نستطيع منه أن نرى دون أن يرانا أحد .. ولهذا يجب أن نكمن فيه .

وبسط نازار وايرجشوف عباءتيهما على العشب ، ورقدا عليهما أما ليوكا فقد مضى مع الصياد ايروشكا على ضفة النهر وهو يقول هامسا :

ـ ان المكان الذى ابتغيه ليس بعيدا .. لسوف امضى بك اليه، وقد رايت فيه ذات يوم بعض آثار الخنازير البرية حين جاءت لتشرب .

ورد الصياد هامسا :

ـ انك فتى واسع الحيلة ايها الخطاف .

وبعد مسافة يسيرة ،توقف ليوكا ،ونظر الى الأرض ، ثم صفر بصوت خافت وقال :

ـ انها تأتى الى هـــذا المكان لتشرب ... أترى هـذه الآثار الحديثة لحوافرها يا ايروشـكا !

وقال الصياد فى ابتهاج :

ـ بارك الله فيك ياليـوكا .. لا شـك أن أحـد الخنـازير البرية فى مكان قـريب من ضفة النهر .. لسوف ابقى هنا لارقبه وعد انت الى زميليك .

وتدثر ليوكا بعباءته جيدا ، وسار عائدا بمفرده الى حيث ترك زميليه .

وقال لنفســه فى أثناء السير :

« من يَدرى .. فلعل بعض رجال التتر يرقبـــوننى الآن ، أو لعلهم مختبئون فى مكان ما على هذه الضفة .

وتنبه من أفكاره على طشيش مفاجىء فى الماء ، واذا بخنزير برى كبير ينطلق هاربا فوق ضفة النهر ليختفى بين نبات الغـاب . وأسرع ليوكا مصوبا بندقيته ، ولكن الخنزير البرى اختفى بين الغاب قبل أن يطلق عليه ليوكا الرصاص . وبصق الشاب على الأرض فى ضيق واستنكار ثم استأنف السير ، حتى اذا اقتـــرب من المكمن أرسل صفيرا خافتا رد عليه أحد زميليه .

وكان نازار قـد رقـد على عباءته واستغرق فى النـوم . أما ايرجوشوف الذى كان متربعا فى جلسته ، فقد تزحزح قليـــلا ليفسح مكانا لليوكا بجواره . ثم قال له :

ـ ان هذا المكان مناسب جدا ، وانا مستريح فيه .. هل ذهبت بايروشكا الى مكان الخنازير البرية ؟.

ـ نعم .. وقد هرب مني احدها اثناء عودتي .. ولاشك انه نفس الخنزير البرى الذى رايته اول امس. ولعلك سمعت طشيش الماء وهو يهرب ؟.

ـ نعم .. وقد عرفت فورا السبب ، وقلت لنفسى « ان ليوكا قد فاجأ خنزيرا بريا » .

ثم تدثر فى عباءته واردف قائلا :

ـ لسوف انام قليلا .. وعليك ان توقظنا عندما يصيح الديك . ويمكنك بعدها ان تنام لنقوم نحن بالحراسة . ام لعلك تريد ان تنام اولا ؟.

ـ لا .. نم انت .. فانني اشعر بالرغبة فى السهر الآن .

وكانت ليلة حارة كثيفة الظلام ليس فيها نسمة هواء . وكانت النجوم تلمع فى الأفق البعيد فى جانب من السماء .. اما الجانب الآخر الأكبر .. فكان محجوبا بسحب داكنة زادت من ظلمة الليل .

وظل ليوكا ساهرا متحفزا يضع اصبعه على زناد البندقية كلما لمح شيئا يتحرك وسمع حركة خفيفة .. ومرت الساعات بطيئة، وبدا الجو يبرد والهواء يمتلىء رطوبة .. وتحركت السحب بعيدا عن وجه السماء ، كاشفة عن قمر صغير فى هزيعه الأخير .. وكان ضوءه الشاحب المرتعش ينساب فى هدوء على صفحة الماء وعلى ضفتى النهر .. ومن الأفق الشرقى البعيد بدأت طلائع الفجر تتسلل فى بطء شديد .. وفتح نازار عينيه وتمتم بكلمات غامضة ثم عاد واستغرق فى النوم. وشعر ليوكا بمزيد من الضجر، فنهض واخرج خنجره من الغمد وراح يشذب عود غاب ليصنع منه عصا .. وكانت افكاره تحوم حول عصابات التتر المغيرة .. لقد اعتاد رجال هذه العصابات ان يغيروا ـ فى جراة عجيبة ـ على قرى القوزاق دون مبالاة بما ينالهم من قتل ومطاردة عنيفة . ومن يدرى .. فلعل

أحدهم الآن يعبر النهر فى مكان آخر .. وان ليوكا ليمد بصره الحاد هنا وهناك .. ولكنه لم ير شيئا وارتدت أفكاره الى القرية ..الى حبيبته دانايكا .. ثم خامره احساس بالمرارة والغضب ..وازدادت طلائع الفجر الفضية اقترابا .. وانتشرت على صفحة الماء تباشير الصباح الباكر ..وطارت هنا وهناك من أعالى الشجر بعض أفراخ النسور .. وصاح أحد الديكة مؤذنا بظهور يوم جديد وتبعه ديك آخر .. ثم ثالث ..

وقال ليوكا لنفسه : لقد آن أن أوقظ زميلى .

وكان قد فرغ من تشذيب عود الغاب ، وشعر باجفانه تثقل ، واستدار ليوقظ زميليه ، وعندئذ سمع ـ أو خيل اليه أنه سمع ـ طشيشا فى الماء .. واستدار مرة أخرى بسرعة وأمعن النظر الى الأفق البعيد عبر النهر ، وراء التلال .. هناك حيث كان الصباح يزحف وراء الشمالة الباقية من القمر . ورأى الشاطىء الآخر من النهر ، وجذع شجرة يطفو على سطح الماء وخيل اليه برهة أنه هو الذى يتحرك،على حين ثبت جذع الشجرة وماء النهر فى مكانهما.. ولكنه ركز نظراته على الجذع الأسود الذى كان يمتد منه غصن صغير : لقد بدا له أن الجذع يطفو بطريقة غير طبيعية .. انه يتحرك نحو الشاطىء الذى يقف فيه ليوكا بدلا من أن يمضى مع تيار النهر. ومد عنقه وراح يرقب بامعان شديد . وفجأة خيل اليه انه رأى ذراع رجل تبدو تحت الجذع ، ومن ثم همس لنفسه « هذه فرصة سانحة أقتل فيها بمفردى تترا من رجال العصابات » وأعد بندقيته وصوبها ووضع إصبعه على الزناد وقال لنفسه « اننى لن أوقظهما ولكن قلبه كان يخفق بشدة وهو يرى الجذع يقترب خفيفا وكأنه أفعى توشك أن تنقض عليه وبذل ليوكا جهده ليمتلك زمام أعصابه انه اذا نجح فى قتل تترى دون مساعدة من أحد فسوف يغدو بطلا فى أنظار أهل القرية جميعا .. ومن يدرى .. فربما منح وساما ومكافأة وترقية . ولعق شفتيه وركز أنظاره .. ورأى من وراء الجذع راسا ، انه راس تترى فعلا ..حسنا ..عندما يرفعه مرة أخرى فسوف يطلق ليوكا عليه النار .. وحانت الفرصة ..

وتمتم ليوكا بعبارات ابتهال ، واطلق النار ، واختفى الرأس بقوة تحت الجذع .. وصاح ايرجوشوف وهو ينتصب جالسا :

ـ امسك به .. امسك به قبل أن يفر الى الغابة .

وقال ليوكا بحدة :

ـ تنبه يا ايرجوشوف .. انه ليس خنزيرا بريا ، وانما تترى من رجال العصابات .

وقال نازار الذى أيقظه دوى الطلق النارى :

ـ ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟.

ـ اقول اننى قتلت تتريا كان ينوى التسلل الينا عبر النهر .

وفرك نازار عينيه وعاد يردد كالببغاء :

ـ قتلت تتريا ؟ قتلت تتريا ؟.

ولم يجب ليوكا ، وانما أعاد حشو بندقيته ، وراح يرقب الجذع والذراع المعلقة به والرأس الذى كان يطفو ويغوص فى الماء.

وعاد نازار يقول فى ذهول :

ـ هل قتلت تتريا حقا ؟. وبمفردك ؟.

ـ نعم ؟.

ـ محال .. محال .. لاشك أن بندقيتك انطلقت من تلقاء نفسها .

ـ قلت لك اننى قتلت تتريا .. أطلقت الرصاص على راسه وهو يتسلل سابحا الينا .. انظر الى هذا الجذع الطافى .

وفرك ايرجوشوف عينيه وقال :

ـ كفى سخرية منا .. انماتقوله مستحيل .. اين هذا التترى المزعوم :

ولما نظر الى حيث أشار ليوكا .. غمغم نازار قائلا فى خوف :

ـ ويحنا .. لاشك أن زملاءه سيغيرون علينا الآن .

ثم اختبر بندقيته ..

واردف قائلا :

ـ ان هذا التترى كان يقوم بعملية استكشاف ولا ريب ... ولعل زملاءه قد عبروا النهر فى مكان آخر .

وفك ليوكا حزامه وبدأ يخلع سترته .

وهنا قال له ايرجوشوف :

ـ ماذا تفعل أيها الأحمق المتهور .. انك اذا خرجت من هـذا المكمن فسوف تتمزق برصاص زملاء هذا التترى القتيل .. اسرع يانازار الى المخفـر وكن حريصا وابتعد عن ضفة النهـر بقـدر الامـكان ..

فقال نازار غاضبا :

ـ اتريد منى الذهاب بمفردى ؟ لماذا لاتذهب انت ؟.

وكان ليوكا قد خلع سترته وسار نحو حافة الماء . ولـكن ايرجوشوف صاح به قائلا :

ـ لاتتقدم ياليوكا .. كن على حذر . ان الجثة توقفت فى مكان ضحل من الشاطىء .. انتظر حتى يأتى بعض حراس المخفر ... أسرع بالذهاب يانازار ، مم تخاف ؟ .. ليس هنـاك ما يدعو الى الخوف ، اننى اؤكد لك .

وقال نازار :

ـ ليوكا .. اسرع الآن .. أخبرنا كيف حدث هذا ؟.

وكان ليوكا قد غير رأيه فى تلك اللحظة ، فلم يمض الى حـافة الماء .. وانما استدار عائدا وهو يقول لزميليه:

ـ اسرعا معا الى المخفر ، وسوف ابقى هنا للحراسة ، واخبرا حراس المخفر ليرسلوا رجالا على متون الجياد حتى يمكننا اللحـاق بباقى أفراد العصابة اذا كانوا قد عبروا النهر .

ووثب ايرجوشوف واقفا وقال بسرعة :

ـ هذا ما قلته .. انهم الآن على هذه الضفة ويجب ان نلحق بهم قبل ان يفيروا على القرية .. هلم نسرع الى المخفر .

ثم أردف قائلا وهو يهم بالاسراع مع نازار الى المخفر عبر الغابات التى تفصل النهر عن مراكز الحراسة :

ـ خذ حذرك ياليوكا والا فاجأك رجال العصابة وذبحوك !

فقال ليوكا وهو يختبر بندقيته :

ـ اذهبا وانا سأعرف كيف أحافظ على نفسى .

وجلس فى المكمن يرهف السمع والبصر . وبدأ القلق يساوره حين قاس فى خياله المسافة التى تفصل النهر عن المخفر . كان يخشى أن يهرب رجال العصابة قبل أن تصل النجدة من المخفر . وكان يعد بندقيته للانطلاق فورا حين يلمح واحدا منهم على الضفة القريبة أو البعيدة .. ولكن شيئا واحدا لم يكن يشغل باله . وهو التفكير ـ مجرد التفكير .. فى أنه قد يصاب فى مقتل !

***

وازداد ضوء الفجر .. وبدأت جثة التترى تبدو بوضوح وهى تتأرجح على سطح الماء الضحل .. وفجأة سمع حفيفا وراءه ، ورأى رؤوس أعواد الغاب الريشية تتحرك ، فشرع بندقيته وصوبها . ولكنه سمع صوت الصياد العجوز ايروشكا وهو يهتف به قائلا :

ـ لاتطلق النار على عمك باليوكا .

وقال ليوكا وهو يرى ايروشكا يبرز من بين أعواد الغاب !

ـ لقد كدت أقتلك بحق السماء .

ـ وماذا فعلت فى أثناء غيبتى .. هل صدت شيئا .

ووقف ليوكا متحفزا ، مختالا ، يقول :

ـ نعم .. صدت حيوانا بريا خطيرا .

وكان الصياد العجوز يحملق فى الجثة الطافية فى الماء الضحل ، على حين استطرد ليوكا يقول :

ـ كان يسبح وراء جذع شجرة . ولمحته .. انظر .. مراويل رقاء ، وبندقية كما يبدو الا تراه !

وقال الصياد العجوز بصوت حازم حزين النبرات :

ـ اننى اراه طيبا .. لقد قتلت شجاعا .

ـ نعم .. لأننى لو لم أقتله لقتلنى .. ان نازار وايرجوشوك فى طريقهما الآن الى المخفر لاحضار بعض زملائنا .. فمن المحتمل أن يكون رجال العصابة فى طريقهم للاغارة على القرية الآن .

وفى تلك اللحظة سمع الاثنان أصوات رجال راكبين من المخفر وهم يسرعون نحوهما .. وقال ليوكا هاتفا :

ـ هل أحضرتم الطوق معكم ..

وقال احد رجال المخفر حين وصلوا الى المكمن .

ـ انك فتى بارع ياليوكا .. احضره الى الشاطىء .

وبدأ ليوكا يخلع ملابسه دون انتظار لاعداد الطوق ، ودون أن يكف لحظة واحدة عن النظر الى ضحيته .

وصاح الجاويش محذرا :

ـ انتظر الطوق يا ليوكا .. ان نازار آت به .

وقال آخر :

ـ لعله لايزال حيا ياليوكا .. خذ حذرك منه .

وقال ليوكا وهو يقفز الى الماء .

ـ اننى لست طفلا .

وسرعان ماراح يضرب الماء بذراعيه فى قوة ، حتى اذا وصل الى مكان الجثة فى الماء الضحل ، راح يهزها وهو يهتف قائلا :

ـ انه ميت تماما .. لقد أصبته فى رأسه .

وكان التترى القتيل مرتديا سراويل زرقاء وقميصا وسترة ، وكان قد ربط فى أعلى جذع الشجرة ، بندقيته وخنجره .

ولما عاد ليوكا بالجثة الى الشاطىء ، التف زملاؤه حولها ...

وقال أحدهم :

ـ لقد أحسنت ياليوكا .. ماأبرعك .

وقال آخر :

ـ ماأشد امتقاع وجهه .

وقال ثالث :

ـ لاشك أن هذا التترى كان يحاول استكشاف المنطقة قبل اغارة زملائه عليها ..

وقال الاول :

ـ وهذا يعنى انه كان يتمتع بشجاعة فائقة .

ـ انظروا الى راسه الحليق ولحيته المصبوغة بالحناء ..

ـ وانظروا الى سترته .. انها جديدة .

وقال الجاويش وهو يقلب بين يديه بندقية وخنجر التترى القتيل :

ـ اسمع ياليوكا .. يمكنك أن تحتفظ بالخنجر والسترة .. وسوف انقدك ثلاث روبلات فضية ثمنا للبندقية .. اننى اريد الاحتفاظ بها تذكارا .

وصمت ليوكا .. وكان وجهه ينم على ان هذا العرض لايرضيه ، الا انه لم يستطع أن يعترض ولكنه راى ان يستفيد من الموقف ..

فقال للجاويش :

ـ حسنا .. وارجو بهذه المناسبة ان تأذن لى بالعودة الى بيتى لمدة يوم أو يومين .

فقال الجاويش وهو لايزال يقلب البندقية بين يديه :

ـ طبعا .. طبعا .. يمكنك أن تذهب .

ثم اردف قائلا لبعض رجاله :

ـ احملوا هذه الجثة الى الفناء الخلفى للمخفر ، وضعوا فوقها بعض الأغطية لحمايتها من الشمس . فلاشك أن أهله سيأتون لدفع الفدية واستردادها .

وقال احد الحراس :

ـ ان حرارة الشمس لم تشتد بعد .

وقال آخـر :

ـ وكيف يكون الحال لو تسلل ثعلب ونهشها ؟.

ورد الجاويش قائلا :

ـ اذن يجب أن يقوم احدكم على حراستها . انهم سيأتون لدفع الفدية ، ومن الأفضل أن يستلموها سليمة .

ثم اردف قائلا لليوكا فى مرح :

ـ عندما تظفر بالفدية ياليوكا ، عليك ان تسقى زملاءك فى المخفر دنا كاملا من الفودكا .. مارايك ؟.

وقال كثير من الحـراس :

ـ نعم .. هذا هو التقليد المتبع .. ما أسعد حظك يا ليـوكا اذ قتلت تتريا بمفردك وانت فى هذه السن !.

وقال ليوكا :

ـ من ذا يشترى الخنجر ؟ ارجو أن يدفع المشترى ثمنا معقولا له وللسراويل أيضا .

واشترى احد الحراس السراويل بثلاث روبلات ، واشترى آخر الخنجر بثمن دنين من الفودكا .

وقال ليـوكا :

ـ الآن أستطيع أن أشترى لكم من القرية دنا كاملا من الفودكا.

وقال الجاويش بلهجة آمرة :

ـ هلم احملوا الجثة الى فناء المخفر .

ولما تردد الحراس فى اطاعة الأمر ، صاح ليوكا :

ـ ماذا تنتظرون أيها الاخوان ؟ احملوها ..

وعندئذ تقدم الحراس ، مرغمين ، لاطاعة الأمر ، وكان ليـوكا هو رئيسهم المباشر .

وقال نازار وهو يفحص رأس التترى القتيل:

ـ لقد اصبته فى جانب الرأس . ولكن الوجه سليم .. ان اهله لن يجدوا مشقة فى التعرف عليه .

ولم يقل احد شيئا ، وانما خيم الصمت على الجميع وهم فى طريق العودة الى المخفر حاملين جثة التترى .

وارتفعت الشمس قليلا .. وظل الهواء منعشا فى تلك الفترة من الصباح .. وكان الندى لايزال يلمع على الاعشاب والنباتات ولكن الحراس ظلوا يسيرون فى صمت حتى قطعه ليوكا وهو ينظر باعجاب الى جسم القتيل .

ـ لقد كان هو ايضا رجلا شجاعا .

ورد عليه احد زملائه قائلا :

ـ نعم .. ولو كان هو الذى لمحك اولا ، لما أمكنك أن تسير بيننا الآن .

ومرة اخرى خيم الصمت على الموكب . وما هو غير نصف ساعة حتى وصلوا الى المخفر حيث وضعوا الجثة فى الفناء الخلفى وسترروها ببعض الاغطية ، وخصصوا لها حارسا .

وانطلق ليوكا وصديقه نازار فى الطريق الى القرية عبر الغابات التى تقوم بينها وبين المخفر .

وقال ليوكا بصوت أجش :

ـ ساجعل حبيبتى تعرف الآن من هو الجدير بحبها .

ولوى نازار شفتيه وقال :

ـ لاشك انه البطل الذى قتل تتريا بمفرده .

ـ عليك ان تذهب الى بيتها يانازار دون ان تخبرها انى ارسلتك فاذا كان زوجها غائبا فاسرع واخبرنى .

قلعق نازان شفتيه وقال :

ـ وهل ستشركني معك في سهرتك ؟.

ـ طبعا .. طبعا .. اذا لم نقض الليلة سهرة رائعة ؛ كمتى لقعل ؟.

ولما وصلا الى القرية ، شرعا يشربان الخمر حتى فقدا الصواب وهكذا أمضيا الليلة غائبين عن وعيهما .

الفصل السادس

البحث عن مسكن

بعد يومين من الأحداث السابق ذكرها ، وصل الى قرية نوفوملنسك القوزاقية كتيبتان من فرقة المشاة بالجيش القوقازى وفى ميدان القرية ، اجتمعت المركبات وجيادها وحاجيات الجنود وأخذ الطهاه يحفرون اماكن لاضرام النار ويجمعون الوقود لاعداد وجبة العشاء على حين انشغل الجاويش بدفع مرتبات الجنود . وراح عدد من هؤلاء الجنود يقيمون الدعائم لانشاء مرابط للجياد . وعلى جانب من الميدان ، تراكمت صناديق الذخيرة ، وعلى الجانب الآخر وضعت الأوعية الضخمة الخاصة بطهو الطعام ، وتوزيعه ، وكان يشرف على هذه العمليات كلها قائد الكتيبتين ، ومساعده الضابط ، وصف ضابط يدعى أونيزيم ميها لوفتش .

وكان اهل القرية ينظرون الى هذا كله فى غير رضى . ولكن الجنود انطلقوا بعد أن تناولوا مرتباتهم ، فى شوارع القرية وميادينها غير حافلين برضاء الأهالى أو بسخطهم . وكان كل جندى أو كل اثنين معا يدخلان هذا الكوخ أو ذاك ، ويغازلان النساء ، ويبسطان أيديهما بالمال والحلوى ، وهكذا لم يكن يخلو فناء كوخ من بعض الجنود الصاخبين العابثين على حين كانت ضحكاتهم تختلط بصياح النساء اللاتى كن يرفضن السماح لهم بالاقامة بينهن ، او بتقديم

مايريد الجنود من ماء أو طعام . وكان الاطفال يختبئون هنا وهناك ويحملقون فى وجوه الجنود بنظرات يملؤها الخوف . اما الرجال العجائز ، فقد جلسوا أمام الأكواخ ينظرون الى ما يجرى فى حزن واستسلام .

واستطاع أولنين ـ الذى كان قد مضى عليه ثلاثة اشهر ضابطا متطوعا بالجيش القوقازى أن يجد من يدله على أحسن بيت فى القرية ، وهو بيت المدرس العسكرى ، ايليا فاسيليفتش ... والد الحسناء ماريانكا وزوج العجوز أولتيكا .

وقال فانيوشا وهو يدخل فناء البيت مع سيده أولنين، راكبين جواديهما بعد مسيرة خمس ساعات متواصلة :

ـ ترى ماذا سيحدث لنا فى هذه القرية ياأولنين ديمترى اندرتش ؟.

ونظر أولنين فى عطف الى تابعه .. ثم ابتسم وقال :

ـ كل خير طبعا .

وكان اولنين قد تغير الى حد كبير .. لقد بدا بعد ثلاثة اشهر من الالتحاق بالجيش وكأنه شاب آخر .. شاب ممتلىء قوة وفتوة .. متوهج الوجه ، ملوح البشرة ، له شارب أنيق ، ولحية صغيرة تضفى عليه مزيدا من سمات الرجولة .

وقال فانيوشا وهو ينحنى ليضع الحقائب على الأرض :

ـ هذا هو رايك لانك لاتعرف شيئا عن هؤلاء الناس . انهم لايحبوننا نحن الروسيين .. وان كل غريب يفد الى بلادهم هو موضع الشك والارتياب .. اننا لم نستطع حتى الآن أن نظفر بكلمة منهم .

وقال أولنين وهو لايزال يبتسم :

ـ كان يجب أن تتحدث أولا الى شيخ القرية .

ـ اننى لا اعرف مكانه .

وقال اولنين وهو ينظر حوله :

ـ ولكن .. ماذا يثير سخطك الآن يافانيوشا ؟.

ـ كلّ شيء .. اللعنة عليهم .. ذهب صاحب البيت كما قالوا ليصيد السمك .. وزوجته العجوز خبيثة كالشيطان .. وليكن الله فى عوننا ضدها .

ووضع الشاب رأسه بين يديه وقال :

ـ اننى لا أدرى كيف ستعيش فى هذا المكان اللعين . . انهم أسوأ من التتر .. بل ان التتر يعتبرون من أشد الناس حضارة بالنسبة لهؤلاء الهمج .

فقال أولنين دون ان يترجل عن جواده :

ـ اذن فأنت لاتشعر هنا بالأمن والراحة .

قهز فانيوشا كتفيه كأنما يرى ان مثل هذا السؤال لايحتاج الى إجابة . وشغل نفسه بالعناية بالجواد الذى ترجل عنه سيده ، بينما عاد أولنين يقول ببساطة :

ـ اذن فالتترى يعتبر رجلا متحضرا .. بالنسبة لهؤلاء الهمج يافانيوشا ..

فقال الشاب فى عناد وغضب :

ـ نعم برغم سخريتك منى .

ـ لاداعى للغضب يافانيوشا .. انتظر حتى أتفاهم مع أصحاب هذا الكوخ . لسوف يتم كل شيء على خير ، وأؤكد لك اننا سنقضى هنا أياما أو شهورا سعيدة .

ولم يجب فانيوشا ، وانما هز رأسه أسفا ، وراح يشيع سيده المتجه الى باب الكوخ بنظرات كلها الاشفاق والرثاء . وكان أولنين يعامل فانيوشا كصديق ، وليس كتابع . ذلك انهما نشأا معا منذ كانا غلامين فى الرابعة عشرة . ومن ثم كان شعور كل منهما نحو الآخر أقرب الى الصداقة منه الى شعور السيد نحو التابع أو العكس .

وصعد أولنين فى الدرجات القليلة المؤدية الى باب الكوخ الأول ـ لأن الفناء كان يحتوى على كوخين كبيرين ـ وفتح الباب قليلا ، ووثبت ماريانكا التى كانت جالسة مرتدية ثوبا منزليا خفيفا ، والتصقت بالجدار وأخفت وجهها بكم ثوبها وراحت تنظر فى خوف

وجزع الى أولنين الذى شرع يتقدم الى الفرقة مترددا وهو يقول لنفسه :

ـ ماأجملها ! ولكن القرية مليئة ولا شك بالعذارى الجميلات من هذا الطراز .

وكانت العجوز أولتيكا مستديرة بظهرها الى الباب تكنس الارضية وهى لاترتدى أيضا غير ثوب واحد من نسيج خفيف ، شأن نساء القوزاق أثناء وجودهن داخل البيوت .

وقال أولنين بصوت مهذب حين رأته السيدة العجوز :

ـ طاب يومك ياأماه .. لقد جئت لاتحدث معك عن السكنى هنا .

فاستدارت المرأة العجوز اليه بوجهها الذى كان محتفظا بلمحات من الجمال الدابر ثم قالت بصوت حاد :

ـ ماذا تفعل هنا ؟ هل جئت لتسخر منا ؟ لسوف أعلمك كيف تسخر منا ، ولياخذك الطاعون .

وكان اولنين يظن ـ كما قيل له ـ ان جنود الجيش القوقازى الذى ينتمى اليه هم دائما موضع الترحيب والحفاوة من سكان القرى القوزاقية ، ولهذا فوجىء بثورة المرأة عليه واستنكارها لوجوده فى بيتها .. ولما حاول أن يؤكد لها أنه ينوى أن يقيم فى بيتها بالأجر ، أبت المرأة أن تستمع اليه أو تتفاهم معه ، وانما صاحت قائلة :

ـ ماذا تفعل هنا ؟ ومن ذا يريد أن يستقبل وباء مثلك فى بيته ؟ انتظر حتى يعود زوجى وسوف يعرف كيف يلقى بك الى الشارع .. أننا لا نريد تقودك ، أم لعلك تظن أننا لم نر نقودا من قبل .. ليت التتر يمزقونك اربا .

وقال أولنين لنفسه : يبدو أن قانبوشا على حق فى مخاوفه ولا شك أن التترى رجل متحضر اذا قورن بهذه المرأة القوزاقية الثائرة .

ثم مضى الى خارج الكوخ وشتائم العجوز أولتيكا تتبعه .. وفيما هو يقترب من باب الكوخ اذا بماريانكا تنفلت بجواره ، وهى لاتزال

في ثوبها الارجواني الرقيق ، ويدها على وجهها ثم تهبط الدرجات القليلة بسرعة ، ثم تتوقف في الشرفة المؤدية الى الفناء ، ثم تستدير وتنظر الى الشاب أولنين بعينين ضاحكتين .. ثم تسرع وتختفي وراء ركن الكوخ .

وكان لخطواتها الرشيقة ، ونظراتها الضاحكة ، وجسمها اللدن تحت ثوبها الارجواني الرقيق ، أكبر الأثر في نفس أولنين ومن ثم عاد يقول لنفسه « ما أجمل هذه العذراء .. »

ولما وصل الى فانيوشا .. قال هذا له وهو لايزال مشغولا بالحقائب :

ـ اترى ؟ ان الفتاة تشبه الغزال البرى .

ـ ثم أرسل ضحكة واردف قائلا .

ـ بل هي اشبه ما تكون بالفرس التي لم يروضها أحد ! .

***

وفي ساعة متأخرة من أصيل اليوم نفسه ، عاد رب البيت من رحلة صيد السمك فلما علم أن الساكن الجديد ينوى أن يدفع ايجارا لسكناه ، هدأ من ثائرة زوجته ، واتفق مع فانيوشا على قيمة الايجار .

وسرعان ما استقرت الأمور في الكوخ . لقد انتقلت الأسرة من الكوخ الأمامي الى الكوخ الثاني ، الخلفي ، المخصص لفصل الشتاء، تاركة الكوخ الصيفي لأولنين وتابعه ، نظير ايجار قدره روبلات ثلاث في الشهر . وبعد أن أصاب أولنين بعض الطعام ، قام ليستريح وفي بوادر المساء استيقظ واغتسل وارتدى ملابسه وتناول العشاء ، وأشعل سيجارة ، وجلس بجوار النافذة ينظر الى الطريق وكان الجو قد بدأ يلطف ، وظلال الكوخ تترامى عبر الشارع المغبر لتصل الى أسفل الكوخ المقابل ، وأخذت النسائم المنعشة تتهادى وخيم السكون العميق على القرية بعدان استقر الجنود في مساكنهم وكان معظم الرجال والنساء لم يعودوا بعد من الحقول والغابات .

كان مسكن أولنين يقع في نهاية القرية على وجه التقريب .. ومن ثم كان يسمع بين الحين والآخر طلقة نارية من بعيد ، عبر نهر

تيريك وسهول كوميسك التى عبرها فى رحلته . وكان يشعر بتمام الرضا بعد هذه الشهور الثلاثة التى عاشها فى هذا الجو العسكرى . لقد استرد خلالها شبابه الذى كان يضيع فى متاهات حياته المترفة ، واسترد مع الشباب قوته وفتوته .. وتذكر فى ابتهاج المعارك التى خاضها مع الجيش القوقازى ، وكيف استطاع أن يواجه الأخطار كأى جندى مدرب باسل ، وبذلك أمكنه أن يثبت جدارته للالتحاق بالجيش القوقازى المشهور . وخيل اليه أن ذكريات حياته فى موسكو قد أصبحت بعيدة بعيدة ؛ كأنها ذكريات حياة انسان آخر لايمت اليه بسبب . لقد انتهت حياته القديمة تماما لتبدأ حياة جديدة ليس فيها أخطاء أو نزوات .. انه الآن انسان جديد مع اناس جدد .. انه الآن يستطيع أن يبنى حياة جديدة يفخر بها هو وأبناؤه من بعده .

ونظر الى الفلمان الذين كانوا يلعبون «النحلة» فى ظلال الكوخ ثم عاد ينظر الى غرفته الواسعة الرحيبة ، وتنهد فى ارتياح .. انه يفكر فى مدى السعادة التى سيشعر بها اذا هو استقر فى هذه القرية القوزاقية الرائعة .. وان نظراته لتمتد الى الجبال .. الجبال المتوجة قممها بالثلوج .. ما أعظم الطبيعة واروعها .. ان حياته الجديدة قد بدأت .. وانه لجد سعيد بها .

وسمع الفلمان ينشدون فجأة بأصوات جماعية :

انه ودع زوجته ..

وشرب كأسه الى آخرها .

ان الصياد ايروشكا ودع زوجته .

وباعها من أجل كأس من الخمر !.

ورأى أولئين الفلمان يسرعون نحو رجل عجوز ضخم الجسم يقترب فى الشارع وهم يرددون :

ان الصياد ايروشكا باع زوجته .

وكذلك باع خنجره ..

من أجل كأس من الخمر .

وكان العجوز ايروشكا عائدا من رحلة صيد وقد حمل بندقيته على كتفه ، وتدلت من حزامه بضع بطات برية .. وكان يرد على الغلمان وهو يلوح بذراعيه وينظر الى النوافذ على الجانبين ، قائلا بصوت ينم عن الاستياء برغم تظاهره بعدم الاهتمام :

ـ نعم ياأولاد .. كان عارا على ان ابيع زوجتى العجوز بكأس من الخمر .

ودهش أولئين لتصرفات الغلمان نحو الرجل العجوز ، ولكن دهشته كانت اعظم حين رأى جسم الصياد الهرقلى ومايدل عليه من قوة وعزم ، ولم يسعه الا أن يناديه قائلا :

ـ ها أيها الصياد .. أيها القوزاقى .. تعال هنا .

وتوقف العجوز وتطلع الى النافذة ثم قال وهو يرفع قلنسوته عن رأسه الحليق :

ـ طاب مساؤك ياصديقى المحترم .

واقترب من النافذة واردف قائلا :

ـ انهم يسخرون من رجل عجوز ، ولكن هذا لايهم .. دعهم ليسعدوا قليلا بالعبث مع رجل عجوز .

وكان صوته قويا وهو يردف قائلا :

ـ هل انت القائد الجديد هنا ؟.

ـ لا اننى ضابط متطوع فقط . ولكن من أين جئت بهذا البط البرى ؟.

ـ هذه البطات الثلاث صدتها فى الغابة ... .. ولم اجد غيرها .

ثم أخذ منها بطتين وقدمهما الى أولئين قائلا :

ـ ارجو أن تقبل هذه الهدية منى .. ويبدو انك شاب تحب الصيد .. اليس كذلك ؟.

ـ بلى .. لقد صدت فى احدى المواقع الحربية اربع بطات بمفردى .

فقال الصياد بلهجة لا تخلو من التهكم :

ـ اربع بطات دفعة واحدة ؟ انك تحب الشراب كذلك ! ما رايك في خمرنا القوزاقية ؟.

ـ ماذا تظن بى ! اننى طبعا احب الشراب .

ـ آها .. انك شاب رائع كما يبدو .. لسوف اكون صديقا وفيا لك .. ما رايك ؟!

ـ اذن . ادخل .. ولسوف نشرب معا بعض خمركم القوزاقية هذه .

ـ اننى ارحب بهذا .. ولكن يجب اولا ان تقبل هذه الهدية !.

وكان واضحا من سمات وجه العجوز انه احب أولنين ، وانه ادرك بسرعة ان فى مقدوره أن يظفر بين الحين والآخر ببضعة كؤوس من الخمر بلا مقابل .. ولهذا أصر على ان يقدم البطتين هدية لأولنين .

ودخل العجوز الكوخ ، وراح يتبادل الحديث مع أولنين حتى أقبل فانيوشا ونظر فى دهشة وامتعاض الى هذا الزائر الغريب ؛ ولكن أولنين بادره قائلا :

ـ اذهب يا فانيوشا واشتر لنا بعض الخمر من صاحبة البيت واحضرها الينا هنا .

وهنا قال الصياد العجوز لفانيوشا :

ـ دعهم يقدموا لك الخمر من الدن الذى فتحوه حديثا . ان لديهم احسن خمر فى هذه المنطقة . ولكن لا تدفع لهم اكثر من ثلاثين كوبكا للقدح الواحد .. لان هذه المرأة العجوز يسرها جدا ان تخدع السكان الجدد وتبيعهم الخمر باسعار خيالية .

ثم همس لاولنين قائلا بعد انصراف فانيوشا :

ـ ان قومى هؤلاء حمقى جدا . انهم ينظرون اليكم ايها الروسيون على انكم لستم من بنى البشر .. انكم فى نظرهم اسوأ من التتر ؟ وهم يسمونكم بالروسيين الكفرة . أما انا ، فانى انظر اليك كجندى باسل .. وكرجل لك روح وجسد ومبادىء كأى رجل آخر . ألست على حق ؟ ان قومى هنا يكرهوننى لاننى أحب

الناس جميعا بلا استثناء .. اننى رجل مرح . نعم .. اننى ايروشكا الصياد يا صديقى العزيز .

ثم ربت بقوة على كتف اولنين .

***

كان فانيوشا فى حالة معنوية رائعة بعد أن استقرت الأمور ، وبعد أن نال قسطه من الراحة ، وبعد ان جعل حلاق الكتيبة يحلق له ذقنه . وقد أسرع بتنفيذ أوامر سيده فأخذ زجاجتين فارغتين ، وانطلق الى ربة البيت العجوز وقال لهـا بصـوت رقيق ليكتسب مودتها :

ـ طاب مساؤكم أيها الناس الطيبون . لقد أرسلنى سـيدى لأشترى منكم بعض النبيذ الأحمر .. فهل تكرموننا أيها النـاس الطيبون ؟

ولم تقل المرأة العجوز شيئا . وكانت ماريانكا واقفة أمام مرآة العصب رأسها بمنديل أبيض . ونظرت الى فانيوشا دون أن تقول شيئا أيضا .

وعاد الشاب يقول وهو «يشخلل» بالنقود فى جيبه :

ـ لسوف ندفع لكم بسخاء أيها الناس المحتـرمون . عاملونا بكرم وسوف نعاملكم بكرم أكثر ..

وقالت المرأة العجوز فى النهاية :

ـ ما هى الكمية التى تريدها ؟

ـ ملء هاتين الزجاجتين .

فقالت العجوز أولتيكا لابنتها :

ـ اذهبى واعطه ما يريد يا حبيبتى .. اعطـه من الدن الذى فتحناه أخيرا .

والتقطت ماريانكا مفاتيح المخزن ، وانصرفت يتبعها فانيوشا . ولما مرت بجوار نافـذة أولنين ، أشار هذا اليها وقال للصياد ايروشكا :

ـ من هذه الشابة الحسناء يا صديقى ؟

وغمز ايروشكا بعينه ، ولكز أولنين بمرفقـه ، ثم قال هامسا وهو يطل من النافذة :

ـ انتظر لحظة .

ثم رفع صوته وقال :

ـ ها ماريانكا يا حبيبتى .. الا تحبيننى ؟ اننى رجل باسل !.

فاستانفت ماريانكا سيرها بعد ان القت عليه نظرة بطيئة جعلته يستطرد هاتفا :

ـ بادليني الحب وانا أجعلك أسعد فتاة فى القرية .

ثم عاد يغمز لأولنين ويوجه اليه نظرة متسائلة ويردف قائلا :

ـ اننى كليب .. اننى وعل .. اننى أسد .

وفجأة همس قائلا :

ـ وهى ملكة متوجة على عرش الجمال .

وقال له أولنين :

ـ انها لكذلك .. دعها تأت الينا .

فهز ايروشكا راسه وقال :

ـ لا .. انها ستتزوج ليوكا .. وهو شاب قوزاقى باسل . انه الشجاع الذى قتل بمفرده تتريا من رجال العصابات فى ذاك اليوم . دعها له وسوف ابحث لك عن فتاة لا تقل جمالا عنها ، فتاة ترتدى الحرير وتتزين بالفضة . وانا اذا قلت شيئا ، فانى اكون دائما عند قولى .

فرد أولنين عليه قائلا :

ـ اتتحدث هكذا وانت فى مثل هذه السن . انها لخطيئة كبرى !.

فقال العجوز مستنكرا :

ـ خطيئة كبرى ! اين الخطأ فى هذا ؟ هل من الخطيئة ان انظر الى فتاة جميلة ، أو أحب فتاة جميلة ، او أخرج للنزهة مع فتاة جميلة ! من اين جئت ؟ لا يا ولدى العزيز انها ليست خطيئة .. انها عبادة .. لقد خلقك الله .. والله خلق هذه الفتاة ايضا . ان الله

هو خالق كل شيء ، ولهـذا فليس من الخطيئـة فى شيء أن ينظر الانسان الى الجمال .. الجمال الممثل فى زهرة أو فى فتاة . لقد خلقها الله جميلة لكى تعيش سعيدة ولكى تسعد الناس . هذا هو رأيى يا ولدى العزيز .

وعبرت ماريانكا الفناء ، وذهبت الى مخزن النبيـذ ، وتمتمت بدعاء قصير قبل ان تبـدأ بملء الزجاجتين من الدن .. ووقف فانيوشا بالباب يرقبها وعلى شفتيه ابتسامة ..

ولما فرغت من ملء الزجاجتين بالنبيذ الأحمر ، سلمتهما الى فانيوشا قائلة حين أراد أن يدفع لها الثمن :

ـ اعط امى النقود .

وقال فانيوشا حين رآها مقطبة الجبين :

ـ وماذا يغضبك منى يا فتاتى الحسناء !.

وبدأت ماريانكا تضحك وتقول :

ـ وماذا عنكم أيها الروسيون ؟ هل أنتم أناس طيبون ؟

وتأملها فانيوشا برهة قبل أن يرد عليها .. واخيرا ابتسم وقال بلهجة مؤكدة :

ـ اننى وسيدى من الناس الطيبين فعلا . والدليل على هذا اننا نتمتع بحب الناس لنا حيثما اقمنا .. ان سـيدى من طبقـة النبلاء فى موسكو .

وانصتت الفتاة باهتمام ، ثم قالت :

ـ وهل هو متزوج .. سيدك هذا ؟.

وغمز فانيوشا بعينه وقال :

ـ لا .. سيدى لم يتزوج بعد .. ان شبان الطبقة التى ينتمى اليها لا يتزوجون فى مثل هذه السن المبكرة .

ـ يبدو أنك بارع فى سرد الأقاصيص الخيالية ، حسنا ، وهل هو قائد الجنود هنا ؟.

ـ ان سيدى ضابط متطوع فى الجيش القوزاقى ، ولم يصل بعد الى درجة الضباط العاملين ولكنه شخصية مرموقة هامة ، أكثر همية من قائد لواء . انه ليس معروفا من قائد فرقتنا هنا فقط ، وانما هو معروف من القيصر نفسه .

قال فانيوشا هذا بلهجة كبرياء ، ثم أردف قائلا :

ـ اننا لسنا من هؤلاء الجنود البائسين المرتزقين ، وانما نحن من اسرة عريقة . لقد كان لوالده الف عامل مسخر فى أراضيه الواسعة . وان سيدى ليتلقى فى كل ثلاثة اشهر الف روبل من ايراد ممتلكاته الواسعة . وهذا ما يجعلنا موضع الحب والتقدير اينما ذهبنا .

فقاطعته ماريانكا قائلة :

ـ هلم نمض .. لسوف أغلق المخزن .

وقدم فانيوشا الزجاجتين لأولئين قائلا :

ـ ما أجمل هذه العذراء !.

ثم رسل ضحكة عالية وانصرف .

الفصل السابع

ليوكا ومارينا

في خلال هذه الفترة كانت القرية قد بدأت تستيقظ كالمعتاد كل يوم في مثل هذه الساعة ، من سباتها قبيل الغروب . لتستقبل العائدين من الحقول والغابات . واخذت قطعان الماشية والمركبات تتدفق من البوابتين ، وتثير في جوها الغبار ، على حين ارتفعت أصوات النساء والفتيات وهن يشرفن على ادخال الماشية الى المرابط ، وكانت الشمس قد اختفت تماما وراء قمم الجبال البعيدة ، ولم يبق منها في صفحة السماء الا بقايا باهتة حمراء . وهناك بعيدا . فوق البساتين المغلفة ببوادر المساء ، بدأت بعض الأنجم تلمع في خفوت وما لبث ضجيج العوده من الحقول أن خف ، وهدأت القرية ، وخرجت النساء والفتيات الى بوابات الاكواخ يتبادلن الاحاديث ويتسلين بقزقزة اللب ، وذلك بعد أن فرغن من حلب الأبقار واعداد طعام العشاء .

وكانت أحاديثهن في ذلك المساء تدور حول مصرع التترى على يد ليوكا ـ الخطاف ـ وكان حد العجائز قد راح يسرد عليهن كيف استطاع ليوكا بمفرده أن يقضي على التترى الجبار .

وقالت احدى النساء :

ـ لاشك أنه سينال مكافأة كبيرة .

ـ نعم .. بالتأكيد .. « ونيشان » أيضا .

ـ ان ذلك الجاويش موزيف حاول ان يخدعه فاخذ منه بندقية التترى رغما عنه . ولكن الضباط فى معسكر كيزلبار سمعوا بهذا الأمر .

ـ انه مخلوق حقير ، ذلك الجاويش موزيف .

وقالت احدى الفتيات :

ـ انهم يقولون ان ليوكا فى القرية الليلة .

ـ نعم .. انه يشرب الخمر مع نازار عند يامكا .

وكانت يامكا امراة قوقازية تدير حانة بغير ترخيص .

واردف المتحدث قائلا :

ـ وقد سمعت انهما شربا اربع زجاجات كاملة .

وقالت احدى النسوة :

ـ ان الخطاف يختطف الحظ كله ـ والخطاف اسم على مسمى .. الا انه فتى ممتاز حقا . لا شك فى هذا . حاد كالخنجر .. وظيف وسخى اليد . وكان والده كذلك . انه صورة كاملة منه .. وعندما قتل خرجت القرية كلها لتشييعه .. انظروا .. ها هم آتون لقد استطاع ايرجوشوف ان يفرض نفسه على الشابين .

واشارت المتحدثة الى ثلاثة رجال كانوا يقتربون نحوهن . وكان ليوكا ونازار وايرجوشوف يتقدمون نحو حلقة البنات والنساء بعد ان شربوا كمية كبيرة من الفودكا . ومن ثم كانت وجوههم مضطرمة . لاسيما وجه ايرجوشوف الذى كان يترنح ويضحك عاليا ويلكز نازار فى جانبيه قائلا للبنات :

ـ ما رايكن فى اغنية تسمعننا اياها ؟ هلممن يا بنات .. غنين لكريما البطولة .

وقالت النسوة :

ـ انكم كنتم تستمتعون بوقتكم .؟ اليس كذلك .

وقالت احدى ربات البيوت :

ـ ان الغناء لا يكون الا فى الاعياد .. وانتم سكارى .. غنوا لانفسكم .

وضج ايرجوشوف بالضحك ، ولكن نازار قائلا :

ـ ابدا انت بالغناء يا نازار ، وسوف اشترك معك . فان لى صوتا اعذب من صوت العندليب .

وقال نازار :

ـ ايتها الجميلات ، مالكن صامتات هكذا . لقد جئنا من المخفر من أجلكن .. وقد شربنا الآن تكريما لليوكا .

وكان ليوكا واقفا امام الفتيات منفرج الساقين ، مختالا بنفسه ، مائل القلنسوة ، يداعب خنجره المشدود الى الحزام بأصابعه ، ويوزع ابتسامته على الجميلات . فلما أقبلت ماريانكا رفع قلنسوته تحية لها ، فأومأت براسها ترد عليه تحيته ، وجلست على المصطبة مع البنات واخرجت من صدرها كيس اللب ، وراحت تقزقزه وتلفظ القشر بلا اهتمام .

وبعد أن خيم الصمت برهة ، قالت احدى النساء :

ـ هل جئت لتقيم مدة طويلة يا ليوكا ؟

فرد ليوكا باكتئاب :

ـ حتى صباح الغد .

وقال القوزاقى العجوز الذى كان يروى حادث التترى :

ـ ليباركك الله يا ليوكا وليزد من حظك الحسن . انى فخور بك ، وقد كنت أقول هذا الآن .

وضحك ايرجوشوف وقال :

ـ وانا ايضا فخور به .. آه .. انظروا الى ضيوفنا .

ثم اشار الى احد الجنود المارين واردف قائلا

ـ ان فودكا الجيش من النوع الممتاز ، وانا احبها جدا .

وهنا قالت احدى النساء :

ـ لقد سكن فى بيتنا ثلاثة من هؤلاء الأبالسة . وقد ذهب جدى الى شيخ القرية ليحتج ولكن الشيخ قال له انه لا يستطيع أن يفعل شيئا .

وقالت امرأة أخرى :

ـ وهل أثاروا المتاعب لكم ؟ .
وردت امراة ثالثة :
ـ يكفى انهم يبصقون بقايا مضغة التبغ على ارضية الغرف . إن من حقهم ان يدخنوا او يمضغوا التبغ خارج الأكواخ . ولكن ليس من حقهم ان يلوثوا بيوتنا بهذه الأشياء القذرة .
وقالت امراة اخرى :
ـ وهم لا يترددون عن سرقة اى شىء يقع فى ايديهم . لماذا لا يستضيف شيخ القرية بعضهم .. عليه اللعنة .
وقال ايرجوشوف :
ـ يبدو انك غير راضية عنهم !.
وقال نازار وهو يقلد ليوكا فى اختياله :
ـ والاسوأ من هذا انهم يرغمون بناتنا الجميلات على خدمتهم واعداد الأسرة لهم .
وضج ايرجوشوف بالضحك وهو يعانق اقرب فتاة اليه :
ـ هذا حقيقى .
وصاحت الفتاة وهى تتخلص منه :
ـ ايها الحيوان الدميم .. دعنى والا اخبرت زوجتك العجوز .
ولكن ايرجوشوف هتف قائلا :
ـ اذهبى واخبريها . ولكن نازار لم يقل غير الحقيقة . لقد أصدر قائد المعسكر تعليمات مكتوبة بذلك . وان نازار ليحسن القراءة .
ثم شرع يعانق الفتاة التالية ، الا أن هذه صاحت به :
ـ ابعد يديك عنى ايها الخنزير العجوز .
ورفعت الفتاة ، أوستنكا الوردية الوجنتين ، يدها لتصفعه ؛ ولكن ايرجوشوف تراجع بسرعة وكاد أن يسقط وهو يقول ضاحكا :
ـ ها . يقولون ان الفتاة لا قوة لها.. ولكن ها هى ذى اوستنكا الحسناء تكاد تقتلنى .
وصاحت أوستنكا ضاحكة وهى تستدير :

ـ ابتعد ايها الخنزير الاسود،ما الذى جاء بك من المخفر ؟ اذن فقد كنت نائما عندما حاول التترى ان يتسلل الى القرية . كان من الممكن ان يقضى عليك . وليته فعل .

فضحك نازار وقال :

ـ اذن لبكيت عليه حتى تحمر عيناك .

ـ كنت سابكى عليه بقدر ما سوف ابكى عليك يوما .

فقال ابرجوشوف ضاحكا :

ـ اترى .. انها عذراء بلا قلب . ولكنها سوف تبكى يوما .

اليس كذلك يا نازار ؟ .

وفى خلال هذا كله ، وقف ليوكا صامتا وهو يحملق النظر الى ماريانكا التى شعرت بالحرج من تركيز نظراته عليها . واخيرا قال لها وهو يقترب منها :

حسنا يا ماريانكا . لقد سمعت انهم فرضوا عليكم احد الضباط للسكنى معكم .

ولم تجب ماريانكا فورا كعادتها ؛ وانما رفعت عينيها الى ليوكا الذى كان ينظر اليها باسما . واخيرا قالت :

ـ نعم .

وقالت احدى النساء العجائز :

ـ ولكن لاسرة ماريانكا كوخين .. ولا بأس من أن يقيم احد الضباط وتابعه فى كوخ منهما أما آل نوفشكين ، فقد سكن معهم احد الضباط الكبار . ويقال ان الكوخ امتلأ بحاجاته حتى لم يعد ثمة مكان لاقامة الاسرة . فهل سمع احد بشىء كهذا ؟ أيليق ان تمتلىء القرية بهذه القطعان المغيرة ؟ ولكن .. ماذا يمكننا ان نفعل ؟ ولماذا جاءوا ؟ هذا ما اريد ان اعرفه .

وردت احدى البنات قائلة :

ـ سمعت انهم سيقيمون جسرا فوق نهر نيريك .

وقال نازار وهو يقترب من اوستنكا

ـ وسمعت انهم سيحفرون حفرة كبيرة يدفنون فيها البنات اللائى لا يبادلن الشبان الحب .

ثم اسرع مبتعدا قبل ان تناله صفعة من يد أوستنكا ، مما جعل الجميع ينفجرون بالضحك وتجاوز ايرجوشوف ماريانكا ، التى كان عليها الدور ، وعانق امراة عجوزا . ومن ثم قال له نازار :

ـ لماذا لم تقبل ماريانكا ؟ يجب ان تاخذهن بالدور

فصاح ايرجوشوف وهو غير حافل بمقاومة المراة العجوز له :

ـ لا .. ان هذه العجوز احلى واعذب .

وهتفت العجوز ضاحكة :

ـ اغيثونى .. انه سيكتم انفاسى .

واقترب ليوكا من ماريانكا وقال لها :

ـ واين اسكنتم الضابط ؟.

فابتسمت ماريانكا وقالت بعد برهة صمت :

ـ فى الكوخ الجديد .

ـ أشاب هو أم عجوز ؟ .

قال ذلك وهو يجلس بجوارها . وردت هى قائلة :

ـ ومن اين لى ان اعرف ؟ اننى لم اره جيدا .. انه الآن جالس يشرب النبيذ مع الصياد العجوز ايروشكا . وكل ما اعرف عنه انه أحمر الشعر ، وأن معه الشىء الكثير من الامتعة .

فازداد ليوكا اقترابا منها وهو لا يحول نظراته عن عينيها ثم قال بصوت خافت :

ـ اننى سعيد بهذه الاجازة الصغيرة التى ظفرت بها من المخفر .

وابتسمت ماريانكا خفيفا وقالت :

ـ والى متى ستبقى ؟.

ـ حتى الصباح .

ثم مد يده وقال :

ـ اعطنى قليلا من اللب .

واتسعت الابتسامة على شفتى ماريانكا وهى تقدم اليه كيس اللب قائلة :

ـ لا تاخذ الكمية كلها .

وهمس ليوكا بصوت خافت وهو يتناول بعض اللب :

ـ كنت أشعر بالوحشة وانا بعيد عنك .. أقسم لك على هذا.
ثم ازداد اقترابا منها وهمس فى اذنها وهو لا يزال يبتسم فى
فى عينيها :
ـ هل ستأتين الى كوخى الليلة ؟.
فقالت بصوت مسموع وهى تتراجع عنه!
ـ لا .. لن آتى .. مستحيل .
فعاد يهمس قائلا :
ـ صدقينى .. اننى اريد ان اخبرك بشىء .. أرجوك ان تأتى
يا ماريانكا .
وهزت ماريانكا راسها وان ظلت باسمة .
وفى تلك اللحظة سمعت ماريانكا أخاها الصغير يهتف قائلا وهو
يسرع نحو الجمع :
ـ أختى ماريانكا .. ان امى تريدك ، لقد حان وقت العشاء .
فقالت له ماريانكا :
ـ سوف آتى حالا .. اذهب انت يا حبيبى الصغير وسوف
الحق بك .
ونهض ليوكا ورفع قلنسوته قائلا :
ـ اعتقد انه قد آن لى أن أعود الى بيتى ايضا . فقد تأخر
الوقت .
وأرسل اليها ابتسامة أخيرة ، ثم اختفى فى المنعطف وكان
الظلام قد انتشر على القرية ، لا يخفف منه الا نور النجوم المتألقة
فى سماء صافية . وبينما كان نازار باقيا مع النساء والبنات
يضاحكهن ويداعبهن ، كان ليوكا يتسلل مسرعا ، لا الى بيته ، وانما
الى اقرب مكان من بيت ماريانكا وعلى مقربة من السياج ، جلس
وهو يقول لنفسه :
ـ انها تتعالى على ؟ حسنا ؟ لسوف اعرف كيف أروضها .
ولما سمع وقع قدميها وهى تقترب ، وثب واقفا واعترض
طريقها ، فتراجعت فى فزع ، ثم اطمأنت حين تبينت انه هو ،
وارسلت ضحكة عالية وقالت :

ـ لقد افزعتنى ! اذن فانت لم تذهب الى بيتك ! ..

ووضع ليوكا احدى ذراعيه حول عنق الفتاة ، ورفع باليد الأخرى وجهها نحوه وقال بصوت مرتعد :

ـ هناك شيء اريد ان اخبرك به .. صدقينى ..

وقاطعته ماريانكا قائلة :

ـ ماذا تريد ان تقول ؟ ان امى تنتظرنى .. ويحسن بك أن تذهب الى حبيبتك .

وتخلصت منه فجاة ، واسرعت نحو سياج كوخها ، ولكنه لحق بها ، فاستدارت اليه وقالت وهى تضحك مرة اخرى :

ـ حسنا .. ماذا تريد ان تخبرنى ايها الخطاف .

ـ كفى عن السخرية بى يا ماريانكا .. ارجوك . ماذا لو ان لى حبيبة ؟ لياخذها الشيطان افتحى لى قلبك وانا احبك اشد الحب . لسوف افعل من اجلك كل شيء . اسمعى ..

ثم شخلل ببعض النقود الفضية فى جيبه واردف قائلا :

ـ اننا نستطيع الآن ان نبنى لنا بيتا . وان الناس غيرنا يستمتعون بحياتهم .. فلماذا لا نفعل مثلهم . لماذا لا تسعدينى يا ماريانكا ؟.

ووقفت ماريانكا صامتة تظرقع باصابعها . وجمع ليوكا قبضتيه ، وقال بصوت حاسم :

ـ اننى ضقت ذرعا بالانتظار .. الى متى انتظر .؟ الست احبك بما فيه الكفاية ؟.

ثم اردف قائلا وهو يمسك يديها بغضب واهتياج :

ـ انك تستطيعين ان تفعلى بى ما تشائين ..

ولم تفقد ماريانكا زمام اعصابها ؟ وانما قالت بصوت هادىء رقيق :

ـ لا داعى لهذه الثورة يا ليوكا .. انصت الى ..

ودفعت به بعيدا عنهـا قليلا وان تركت يديها بين يديه ، ثم قالت :

ـ اننى حقا مجرد فتاة لا حول لى ولا قوة . ولكن انصت الى .. اننى لا استطيع ان اقرر شيئا . ولـكن اذا كنت تحبنى حقـا فاترك يدى .. اننى استطيع ان اتحدث دون ان تمسك بى هكذا . اننى على استعداد لأن اتزوجك . ولكنك لن تستطيع ان تنال منى شيئا قبل الزواج .

فقال ليوكا وقد هدات ثائرته وشاع الابتسام فى وجهه،والرقة فى صوته :

ـ ماذا تعنين بالزواج ! ان الزواج ليس فى أيدينا .. ولكننى أريد ان تحبينى.. أريد أن اتاكد من حبك اولا يا صغيرتى ماريانكا.

فاقتربت ماريانكا منه وقالت وهى تقبله بحرارة :

ـ يا فتاى العزيز .

ثم تخلصت منه بسرعة ، واندفعت الى بوابة كوخهـا دون أن تستدير اليه ، ورغم كل محاولاته لاستبقائها برهة أخرى ، فانهـا أصرت على الافتراق وهى تهمس له قائلة :

ـ هلم ابتعد والا رآنا أحد .. لعل ذلك الساكن اللعين الجديد يتجول الآن فى الفناء .

وقال ليوكا لنفسه وهو يتراجع :

ـ آه يا ابنـة المدرس ! انك تريدين الزواج منى ؟ حسنا .. ولـكن عليك اولا أن تحبينى ولسوف نرى .

والتقى بنازار فى حانة يامكا . وبعد أن شرب معه قليلا ذهب الى حبيبته دونايكا ليقضى معها الليل رغم ما سمعه عن خيانتها له.

الفصل الثامن

حديث عن مارينكا

كان الصياد العجوز ايروشكا يحب ليوكا ويرى فيه لمحات من شبابه الدابر ، ومن ثم نهض من رقدته على ظهر الفرن فى كوخه الصغير حين سمع صوت ليوكا يناديه من الخارج ، واسرع يستقبله قائلا

ـ آه يا عزيزى ليوكا .. هل جئت لتزور صديقك العجوز ايروشكا . ادخل يا ولدى .. ادخل .

وقال له وهو يستقبله داخل الكوخ :

ـ هل تنوى العودة الى المخفر يا ليوكا ؟.

فقال ليوكا وهو يضع امام ايروشكا زجاجة من النبيذ :

ـ لقد جئت اليك بالنبيذ الذى وعدتك اياه بعد مصرع التترى.

ـ آه .. بارك الله فيك يا ولدى .. ما اكرمك .

ثم صب لنفسه كأسا ، ولليوكا اخرى ، وقال :

ـ فى صحتك يا ولدى ليوكا .. وليزدك الله نجاحا وشهرة.

وشكره ليوكا .. واسرع العجوز ووضع بعض السمك المجفف على مائدة قديمة ، وقال وهو يدعو ليوكا الى الطعام :

ـ أترى .. أن لدى كفايتى من الطعام دائما .. حمدا لله .. والآن ماذا عن الجاويش موزيف ؟.

فلما اخبره ليوكا بأمر البندقية التى أخذها منه الجاويش قال له ايروشكا :

ـ دعك من هذه البندقية .. انك لو لم تعطها اياه ، ما ظفرت بالمكافأة .

ـ ولكنهم يقولون انها ستكون مكافأة بسيطة لأنى حديث عهد بالخدمة ، ولم التحق بعد بكتيبة الفرسان . اما البندقية فانها رائعة .. ليس لها مثيل لدينا .. انها مصنوعة فى القرم .. وتساوى ثمانية روبلات على الاقل .

فقال العجوز بلهجة الرجل المجرب :

ـ دع الأمر يقف عند هذا الحد . لقد اشتبكت فى نزاع من هذا النوع وانا شاب مثلك . كان رئيسى الضابط يريد منى أن اهدى اليه جوادى الاصيل ليرقينى الى رتبة معلم .. ولكننى رفضت ، وهكذا ضاعت كل فرصة للترقية بعد ذلك .

فقال ليوكا وهو يومىء برأسه :

ـ نعم .. نعم يا صديقى العجوز .. ولكن على أن أشترى جوادا ، وثمن الجواد ـ اذا حصلت عليه عبر النهر ـ لا يقل عن خمسين روبلا ، ووالدتى لم تبع محصولنا من النبيذ بعد .

ـ آها .. ان صديقك العجوز ايروشكا لم يكن يهتم بهذه التفاهات عندما كان فى مثل سنك .. كنت اذهب واسرق قطعانا كاملة من الجياد من هضاب نوجاى واعبر بها نهر تيريك .. وكنا أحيانا نبيع الجواد بعباءة أو بزجاجتين من الفودكا .

بمثل هذا السعر البخس كنتم تبيعون الجواد ؟ .

ـ نعم .. انك لا تزال غرا يا صديقى الصغير .. اننا كنا نسرق الجياد حتى لا نتعلم البخل . اما أنتم يا فتيان اليوم ، فلعل الواحد منكم لم ير فى حياته قطيعا من الجياد . لماذا لا تقول شيئا ؟.

ـ وماذا تريدنى اقول يا ايروشكا .. اننا لسنا من جيل واحد .

ـ انك أحمق يا ليوكا .. لاشك فى ذلك ..

ثم اردف قائلا وهو يقلد ليوكا ساخرا:

ـ اننا لسنا من جيل واحد !! حسنا .. بل اننا فى الواقع نختلف جدا . فأنا عندما كنت فى مثل سنك،كنت قوزاقيا مختلفا.

ـ ماذا كنت يا ايروشكا ؟!.

فهز ايروشكا راسه وقال:

ـ كان الصياد ايروشكا رجلا اجتماعيا .. لم يكن يبخل على أحد بشيء . ولهذا كان محبوبا من الجميع ، وكان اذا جاء احد اصدقائى لزيارتى قدمت له الطعام والشراب وجعلته ينام فى فراشى . واذا ذهبت لزيارته حملت هدية له . هكذا ينبغى أن تكون الحياة ، وليس كما تفعلون الآن . ان التسلية الوحيدة لكم ايها الفتيان هى قزقزة اللب والعبث مع البنات .

فاطرق ليوكا برأسه وقال:

ـ نعم .. هذه هى الحقيقة .

ـ اذا اردت أن تعيش رجلا ، فكن شجاعا . ان الرجل العادى اذا اراد جوادا اشتراه .. أما الرجل الشجاع ، اذا اراد جوادا فانه يظفر به من هضاب نوجاى .

وساد الصمت برهة قطعه ليوكا بقوله:

ـ نعم .. نعم .. ان الحياة فى المخفر مملة وكذلك فى القرية. وليس هنا او هناك مكان يستطيع فيه المرء أن يعرب عن شجاعته . أن كل زملائنا خاملون . اليك نازار مثلا . لقد ذهبت معه ذاك اليوم الى قرية تترية ، واراد شيخها جيرى خان أن يصحب احدا للاغارة على هضبة نوجاى والظفر ببعض الجياد ، ولكن نازار رفض ولم أستطع ان اذهب بمفردى .

ـ وماذا عنى ، اننى لم أنته بعد .. اعطنى جوادا وانا أغير على هضاب نوجاى فى لمح البصر .

ـ ما جدوى الحديث على هذا النحو الفارغ،يحسن أن تخبرنى ماذا ينبغى ان افعل مع جيرى خان ؟ لقد طلب منى ان أسرق الجياد من هضاب نوجاى الى شاطىء تيريك وبعد ذلك يستطيع أن

يتصرف فيها ولو كانت عشرين حواداً . ولكنه رجلٌ تترى .. فهل أستطيع أن اثق به ؟.

ـ يمكنك ان تثق فى جيرى خان.. انه رجل شريف هو وجميع قومه . وقد كان والده صديقا حميما لى . ولكن استمع الى نصيحتى ، دعه يقسم على الاخلاص لك . ويمكنك ان تطمئن اليه بعد ذلك. واذا خرجت للاغاره معه ، فخذ مسدسك معك ولاسيما عندما تبدأ فى تقسيم الاسلاب . لقد كدت أن اقتل ذات مره على يد تترى عندما طالبت بعشرة روبلات عن كلّ جواد . ان الثقة لا بأس بها ، ولكن عليك ان تجعل مسدسك فى متناول يدك دائما.

وصمت الصياد العجوز برهة ، ثم قال فجأة :

ـ ولكن نصيحتى الاساسية هى عدم الذهاب الى نوجاى ..

نعم يا ليوكا ، لا تذهب الى نوجاى مهما كان السبب .

ـ لماذا ؟.

ـ لان الظروف قد تغيرت . الا ترى كل هؤلاء الجنود الروسيين الذين يملئون المنطقة ، انك اذا ذهبت للاغارة على نوجاى فسوف تعرض نفسك للعقاب. لسوف توضع فى السجن صدقنى يا ليوكا ، دعك من نوجاى وخيولها .. ان الظروف تغيرت ..

واستعد الصياد العجوز لسرد احدى أقاصيص مغامراته التى لا حصر لها ولكن ليوكا قال وهو يرى ضوء الفجر يتسلل الى النافذة :

ـ لقد اسفر الصباح يا صديقى العجوز ، ويجب ان اعود الى المخفر ، ارجو ان اراك يوما آخر .

ـ ليحفظك الله يا ليوكا .. ولسوف أتصرف انا ايضا لقد وعدت الضابط أولتين بمصاحبته الى رحلة صيد اليوم .. انه شاب لطيف .

***

وفيما كان ليوكا يسير فى طريقه الى المخفر ، صفر الصياد العجوز ايروشكا لكلابه ومضى الى مسكن اولتين حيث وجد الشاب

لا يزال يغط في نومه ، وحتى قانيوشا كان راقدا في فراشه رغم يقظته ، يتلفت حوله ، ليدرك أين هو ، قبل أن ينهض .

وفتح ايروشكا الباب وهو في كامل أهبته للصيد وصاح قائلا :

ـ الى السلاح ايها الكسالى ! لقد هجم علينا التتر .. فانيوشا ! ضع ابريق الشاى على الموقد واسرع ، ما هذا النوم ، ان البنات قد استيقظن .. انظر الى تلك السائرة نحو النهر لتستقى ؟.

واستيقظ اولتين ووثب واقفا من الفراش وهو يشعر بالانتعاش والبهجة على صوت ايروشكا الذى كان يستطرد قائلا :

ـ خطوة سريعة يا قانيوشا ، أهكذا يستعد الناس للصيد ؟ ان الناس قد تناولوا افطارهم وانت لا تزال نائما ؟.

وقال اولتين ضاحكا :

ـ انني اعترف بالذنب فلا جدوى من الانكار .. جهز البنادق والبارود وحقائب الصيد يا فانيوشا .

وصاح ايروشكا قائلا :

ـ لسوف اسامحك هذه المرة ، ولكن اذا تكرر هذا منك ! فسوف اغرمك ثمن زجاجتين من النبيذ الأحمر . ان الغزلان تهرب الى مخابئها بمجرد ظهور الشمس .

فقال اولتين وهو يتذكر احاديث العجوز في الليلة السابقة :

ـ وحتى اذا وجدنا غزالا ، فسوف يكون أبرع منا واذكى . انك لن تستطيع أن تخدع الغزال في ضوء النهار !.

ـ آه . اضحك ما شئت ، ولكن ينبغي أن تصيد واحدا منها قبل أن تضحك . ها هو ذا صاحب البيت مقبل علينا لزيارتك كما يبدو .. انه يرتدى ملابسه الرسمية لكي يجعلك تعرف انه برتبة ضابط .. آه .. ما أشد غرور هؤلاء الناس .

واسرع قانيوشا من الفناء يعلن وصول صاحب البيت . وسرعان ما اقبل والد ماريانكا في ملابسه العسكرية الرسمية ، وكان وجهه ينم على انه قوزاقي « مثقف » ينحدر من أصل كريم وكان في نحو الخمسين من العمر ، ملوح الوجه ، قوى الصوت ، يتحدث بنفس الطريقة التي يتحدث بها الصياد ايروشكا .

واستقبله اولنين مرحبا ، والتمس منه أن يجلس ، على حين قال ايروشكا وهو ينحنى بطريقة مضحكة .

ـ طاب صباحك يا سيد ايليا فاسيلفتش .

فرد الضيف قائلا وهو يومىء برأسه فى تحية عابرة :

ـ طاب صباحك يا ايروشكا .. لقد جئت فى ساعة مبكرة على ما يبدو .

ثم اردف قائلا لأولتين وهو يشير الى الصياد العجوز :

ـ هذا هو النمرود العصرى .. انه ابرع صياد فى هذه البلاد ، وأسبق الرجال الى ركوب المخاطر .. ولاشك أنك ستبتهج بصحبته .

ووقف ايروشكا مطرقا برأسه لا يدرى ماذا يقول ازاء هذا الاطراء ولكنه كان يفكر فى هذه العبارة « النمرود العصرى » ويحاول أن يفهم دلالتها !.

وقال أولتين :

ـ نعم .. لقد كنا على وشك الخروج للصيد معا .

ـ حسنا .. حسنا .. ولكننى جئت لأتحدث معك حديثا لن يستغرق الا بضع دقائق .

ـ اننى رهن اشارتك .

ـ الواضح أنك واحد من السادة الكبراء ، وبما أننى برتبة ضابط بالجيش ، فمعنى هذا اننا سنتفاهم على كل شىء .

ثم توقف لحظة قبل أن يستطرد قائلا وهو يلقى نظرة باسمة على الصياد العجوز وعلى أولتين :

ـ ان زوجتى العجوز لم تحسن الاتفاق معك .. فالواقع أن هذا الكوخ كان مؤجرا فى يوم ما لأحد الضباط بستة روبلات فى الشهر ، غير مربط الجياد .. ولما كانت زوجتى العجوز لا تعرف شيئا فى شئون التأجير فاننى أرى أن الاتفاق الذى تم بينكما لا يعتبر قائما ..

ـ ماذا تعنى ؟!.

ـ الا اذا وافقت على ان يكون الايجار الشهرى لهذا الكوخ ستة روبلات .

ووافق أولنين فورا .. وشرب الجميع الشاى ، ثم نهض الضيف وانحنى قائلا لأولنين قبل أن ينصرف :

ـ ارجو ان تتكرم بزيارتنا وتتناول شيئا من نبيذنا على حسب التقاليد المتبعة فى هذه البلاد .

ـ سوف أتشرف بزيارتكم فى أقرب فرصة .

وبعد انصراف ايليـا فاسيلفتش ، والد ماريانكا قال ايروشكا العجوز لأولنين :

ـ ياله من وغد ؟ هل ستعطيه حقا ستة روبلات أجرا شهريا لهذا الكوخ ! من ذا سمع بشىء من هذا من قبل ؟ ان أجر احسن كوخ فى القرية لا يزيد على روبلين فى الشهر بل اننى مستعد أن أؤجر لـكم كوخى بثلاثة روبلات .

فقال اولنين :

ـ لا .. اننى أفضل البقاء هنا .

ـ ستة روبلات ؟ يبدو أن لديك مالا لاحصر له .. ها يافانيوشا احضر بعض النبيذ اننى ظمآن أيها اللعين .

وبعد ان شرب كل منهما جرعة نبيذ للاستعانة بها على مشقة الطريق ، انطلقا بعد السابعة بقليل . وعند بوابة القرية التقيا بمركبة يجرها ثوران ، وتجلس فى مقعد القيادة ماريانكا وقد عصبت راسها بمنديل ابيض يكاد يصل الى عينيها ، وما أن رآها ايروشكا حتى هتف قائلا :

ـ آه .. هاهى ذى حبيبتى ماريانكا .

ورفعت ماريانكا السوط مهددة وهى تنظر اليه والى أولنين بعينيها الجميلتين الضاحكتين .

ثم قـالت :

ـ حذار ان تقترب والا ..

ثم فرقعت بالسوط للثورين ، وانطلقت فى الطريق الزراعى بين الحقول وسار فى الطريق نفسه أولنين وايروشكا الذى استطرد فى الحديث عن والد ماريانكا قائلا :

ـ ذلك اللص .. ستة روبلات ؟.. ياله من انتهـازى لعين .

ـ ولـكن لمـاذا انت ثائر عليه يا ايروشكا ؟ .

ـ لانه بخيل .. وانا لا أطيق الرجل البخيل . ان الانسان لن يأخذ معه المال بعد الموت ، فلماذا يحرم نفسه اطايب الحياة بالبخل واكتناز المال . ان لديه الآن كوخين وقد ظفر من ابن عم له ببستان ثان من الفاكهة والكروم ، وهو بارع فى كتابة الدعاوى والشكايات لأهل القرية . بل ان اهالى القرى الأخرى يأتون اليه ليكتب لهـم شكاياتهم . فلماذا يدخر المال .. ولمن ؟.. ان له ابنة واحدة وابنا واحدا ..والابنة سوف تتزوج قريبا فلماذا كل هذا البخل والتهالك على جمع المال !..

فقال أولنين :

ـ آه .. لعله يدخر المـال لزواج ابنته .

ـ ان زواج الفتاة لن يكلفه مالا .. انها جميلة ومعظم شـبان القرية يتمنون زواجها . ولكن هذا الوغد يريد ان يزوجها من رجل ثرى . انه يريد ان يظفر من ورائها بمبلغ كبير . ان فى هذه القرية شابا قوزاقيا يدعى ليوكا . وهو جار لنا، وابن أخ لى . انه شـاب بارع شـجاع وهو الشـاب الذى قتل تتريا بالأمس .. حسـنا انه يطلب يد الفتاة منذ مدة طويلة ولكن والدها يراوغـه ويبتكر الأعذار قائلا انها لاتزال صغيرة وما الى هذا . ولكننى أعرف ماذا يريد .. انه يريد أن يركع الشبان أمامه .. ما أحقره . ولكن ليوكا سوف يظفر بها فى النهاية ، لأنه أفضل شاب قوزاقى فى القرية .. وسوف ينال وساما ما على قتله التترى ..

فقال أولنين :

ولـكن ما رايك اننى رايت هذه الفتاة امس تقبل قوزاقيا فى اثناء سيرى فى الفناء ليلة امس .

فصاح ايروشكا قائلا وهو يتوقف فجأة :

ـ انك لست جادا !.

ـ اقسم لك على هذا ؟.

ففكر ايروشكا ثم قال :

ـ ان النساء شياطين .. ولكن اى قوزاقى هذا ؟.

ـ لم استطع ان اراه جيدا فى الظلام .

ـ مالون قلنسوته .. هل كانت بيضاء ؟.

ـ نعم .

ـ وسترته .. هل كان يرتدى سترة حمراء ؟.

ـ نعم .

ـ وهل كان فى مثل طولك ؟.

ـ نعم .. او اطول قليلا .

فانفجر الصياد العجوز ضاحكا وقال :

ـ انه هو .. صديقى الشاب ليوكا .. اننى احبه كانه ابنى .

وصمت اولنين برهة .. ثم قال :

ـ كيف سيكون صيدنا !.

ـ سوف نتبع الكلب . وعندما نرى بطة فوق شجرة ، يمكنك ان تطلق النار عليها .

وبعد برهة صمت اخرى قال اولنين :

ـ لو انك فى مكانى ، فهل كنت تفازل ماريانكا .

ـ سوف اخبرك بما يجب ان تفعل هذه الليلة . ولكن عليك الآن ان تراقب الكلب .

واشار الى كلبه المحبوب ليام .

وبعد أن سارا مسافة أخرى قى صمت ؛ استأنف أولين الحديث عن ماريانكا قائلا :

ـ زدنى حديثا عن ماريانكا .. إذن فهى تتبادل الحب مع اليوكا ؟.

فهمس الصياد العجوز قائلا :

ـ سكوتا .. اتصت جيدا .. اننا الآن سندخل الغابة .

ثم تقدم فى ممر ضيق ، وما لبث الاثنان أن وجدا نفسيهما داخل غابة كثيفة الشجر .. وكلما سمع ايروشكا حفيفا ، شرع يتدقيته ، وفجأة عاد يقول بصوت هامس قاضب :

ـ لاتحدث صوتا فى مسيرك أيها الشاب .. خفف الخطوة بقدر ما تستطيع لاننا الآن فى جوف الغابة .

***

الفصل التاسع
الصيد

وهمس الصياد العجوز فجأة وهو يجذب قلنسوته ليخفى وجهه :

ـ لقد حطت بطة على غصن شجرة قريب .. اخف وجهك بقبعتك ايها الشاب .. واستعد ان البط يخاف من وجوه الرجال .

وكان اولنين يسير وراء ايروشكا .. وما أن سمع تحذيره حتى فوجىء بدوى طلقة نارية أرسلها الصياد العجوز من بندقيته .. واذا بذكر بط يتهاوى قتيلا على مسافة غير بعيدة ، واذا الكلب ليدا يسرع ليلتقطه . وفيما كان أولنين يقترب ، اذا به يرى ذكر بط آخر يحاول الهرب .. فصوب اليه بندقيته واطلقها عليه .. وأصابه فى مقتل .

وصاح الرجل العجوز ضاحكا :

ـ مرحى .. مرحى .

والتقط البطتين فى ابتهاج ، وسار الاثنان سعيدين ، وراحا يتبادلان الحديث بمودة ، وقد اغتبط اولنين بعبارات المدح التى كان يسمعها من الصياد العجوز .

وقى منعطف داخل الغابة .. قال أيروشكا !

ـ انتظر لحظة .. لسوف نمضى الآن فى هذا الممر ، لاننى رأيت منذ يومين آثار بعض الظباء .

وصارا فى ممر كثيف الشجر ، وبعد مسيرة مائة ياردة ، وصلا الى ساحة ذات عشب وماء ، وشاهد أولنين ـ الذى كان يسير فى المؤخرة ـ الصياد العجوز وهو ينحنى على الأرض ويفحص بعض الآثار ، ثم يشير الى آثار أقدام بشرية ويقول :

ـ أترى ؟

فقال أولنين بصوت خافت :

ـ نعم .. انها آثار أقدام بشرية .

وخطر بباله أن الآثار قد تكون لأقدام بعض التتر المختبئين فى الغابة استعدادا للاغارة على القرية ، ومن ثم بدأت المخاوف تنوشه ولكنه فوجىء بايروشكا يقول له :

ـ انها أقدامى أنا .. وهى تكاد تختفى تحت آثار حوافر بعض الحيوانات البرية .. وهذا يعنى أن هذه الحيوانات قد مرت من هنا منذ عهد قريب .

وفجأة سمعا صوت حيوان ينطلق من مخبئه ويشق النبات الكثيف فى طريقه ، وسرعان ما أعدا بندقيتيهما للانطلاق . ولكنهما لم يريا شيئا ، وانما سمعا فقط دقدقة حوافر حيوان يندفع بعيدا عنهما .

وقال الصياد العجوز وهو يكشر عن أنيابه فى غيظ :

ـ انه وعل كبير القرون .. لاشك انه كان واقفا فى مخبأ قريب فكيف غفلنا عنه .. يالالفرصة الضائعة .. ما أشد حماقتى .

وبدأت الشمس تميل نحو الغروب ، عندما أخذ أولنين مع الصياد العجوز فى العودة الى الكوخ ، وبرغم ماكان يشعر به أولنين من تعب وجوع ، فانه كان مبتهجا سعيد النفس وهو يرى مرة

أخرى الجبال البعيدة ، وماريانكا تروح وتغدو في الفناء ، والصياد ايروشكا لايكف عن سرد مغامراته أيام الشباب .

***

وفي صباح اليوم التالي ، ذهب اولنين الى الغابة ، للصيد بمفرده .. لم يشأ أن يصحبه معه الصياد العجوز . وسار فورا الى البقعة التي هرب منها الوعل في اليوم السابق ولكنه لم يجد له اثرا .. فانعطف الى مكان آخر في قلب الغابة ، وسرعان ما رأى عددا من البط يحاول الطيران بعيدا ، فأطلق عليه بندقيته بسرعة وفي طلقات متوالية مما جعله يستطيع اسقاط خمس بطات . وأدرك ان ايروشكا العجوز أبى أن يسير به الى هذا المكان الزاخر بالبط ، حتى يحتفظ بسره لنفسه .

وعند الظهيرة ، كان التعب قد حل به ، فالتقط بطاته الخمس ، وشرع يسير في طريق العودة .. ولكن الساعات أخذت تمر وهو لايجد منفذا يخرج به من الغابة . وأدرك أنه ضل الطريق .. وأن من الممكن أن يقضي بضعة أيام وليال وهو سجين داخل غابة لايعرف معالمها . ومع كل خطوة كانت مخاوفه تزداد .. ونسي تعبه . وراح يحث الخطو وهو يحاول أن يعرف طريقه من اتجاه الضوء ولكن عبثا كانت محاولاته لقد خيل اليه ان كل خطوة يخطوها تمضي به الى قلب الغابة بدلا من خارجها .. وبدأ الظلام يكسو الجو . وازداد احساسا بالضياع .. وراح يتمتم بالدعاء ، ولما أظلم الجو أيقن أنه سوف يقضي الليل بمفرده داخل غابة زاخرة بالوحوش والحيوانات البرية . ومن يدري .. فلعله يلقى حتفه في هذا المكان الموحش .. ولعل حيوانا بريا يلتهم جسده ولايترك الا عظامه لكي تنمو فوقها النباتات . ولكنه أبى أن يستسلم لليأس ، فراح يمضي على غير هدى والأمل يراوده في أنه سوف يجد نفسه فجأة خارج الغابة في طريق معروف .

وتحقق الأمل في لحظة ، وإذا هو ، في ظلام الليل ، يسمع أصوات جماعة من جنود القوزاق يتحدثون ويضحكون في مكان

قريب . وأسرع نحو مصدر الأصوات .. وما لبث أن رأى مياه نهر تيريك تلمع فى شفق المساء ، والهضاب على الضفة الأخرى تمتد الى الأفق البعيد وبعد مسيرة خطوات أخرى ، رأى برج المراقبة فى المخفر يرتفع أمامه ، وشاهد جوادا يرعى العشب فى مكان قريب منه ، كما لمح عددا من الجنود واقفين يتحدثون ، وبينهم ليوكا بقامته الطويلة ، يتبادل معهم الحديث والضحكات ..

وخامر أولنين احساس عميق بالسعادة .. لقد ادرك انه وصل الى مخفر نيزن ـ برونسك على نهر تيريك فى مواجهة القرى التترية على الضفة الأخرى من النهر .

وتنهد فى ارتياح عندما وصل الى احد الاكواخ المخصصة للاستراحة فى المخفر .. ورد الجنود عليه التحية بلا اهتمام ، لانه كان اولا يدخن سيجارة ، وقد اعتاد القوزاق ان يحتقروا مدخنى السجائر ، ولانهم كانوا من ناحية اخرى مشغولين بأمور اكثر اهمية .

كانوا فى تلك الليلة يستعدون لاستقبال جماعة من التتر الذين قرروا الحضور لافتداء جثة مواطنهم الذى قتل بيد ليوكا . ومن ثم كان الجنود القوزاق فى حالة انتظار وصول قائد الحامية من القرية ليقوم بالمفاوضات مع جماعة التتر ..

ولم تمض غير لحظات حتى وصل الوفد التترى برياسة شقيق القتيل ، وكان رجلا قوى البأس ، قصير الشعر ، مصبوغ اللحية بالحناء شديد الشبه باخيه القتيل ، وبعد أن تبادل التحية القصيرة مع حراس المخفر ، جلس فى هدوء دون أن يتنازل بالنظر الى احد أو حتى الى جثة أخيه . وانما ظل جالسا يدخن متبغه القصير .. ويبصق على الأرض ، ويدمدم بكلمات غامضة كان زملاؤه ينصتون اليها باهتمام . وكان الواضح انه واحد من الذين التقوا فى معارك كثيرة مع الجنود الروسيين ، ومن ثم لم يكن فيهم ما يثير اهتمامه أو يسترعى نظره .

وكاد أولنين أن يمضى ويلقى نظرة على جثة التترى القتيل ، ولكن شقيقه دمدم بعبارات حادة وقد ارتسم الاحتقار الممزوج بالغضب

على وجهه ، مما جعل أحد الحراس يسرع ويلقى بظرف القطاء على وجه الجثة ، وتأثر أولنين بهيبة التترى الباسل ، وحاول أن يتحدث معه ليسأله من أين جاء ، ولكن الرجل نظر اليه فى احتقار ثم بصق على الأرض ، ولم يبتسم أولنين ، وانما استدار الى المترجم الذى جاء مع الوفد ليقوم بترجمة الأحاديث بين التتر والقوزاق ، وراح يتحدث اليه بعد أن قدم اليه بضع سجائر .

وقال المترجم التترى باللغة الروسية الركيكة .

ـ انهم خمسة اخوة . وهذا القتيل هو ثالث ضحية على أيدى الروسيين من هؤلاء الاخوة ولم يبق الا اخوان فقط .

ثم أشار الى التترى الباسل واردف قائلا :

ـ ان هذا الأخ شجاع .. شجاع جدا ، له قلب أسد .. وقد كان مختبئا بين الأشجار على ضفة النهر عندما قتل أخوه وهو يحاول عبور النهر للاستكشاف . وقد شاهد كل شىء بعد ذلك . شاهدهم وهم يخرجون جثة اخيه من الماء .. وهم يضحكون وقد أراد أن يقتحم صفوفهم ويقتل عددا منهم ، ولكن زملاءه منعوه .

واقبل ليوكا وجلس بجوار المترجم وساله قائلا :

من اية قرية هو ؟

فأشار المترجم الى الهضاب الممتدة وراء ضفة النهر .. ثم قال :

ـ من قرية سويوك رسو .. على مسافة ثمانية اميال .

ـ هل تعرف رجلا كبيرا يدعى جيرى ـ خان .. انه من اهالى منطقة سويوك رسو .. انه صديق لى .

ـ انه ايضا جار لى .

وهنا بدا الاهتمام على ليوكا ، فراح يتحدث مع المترجم باللغة التترية .

وبعد لحظات اخرى ، وصل قائد الحامية من القرية ، ومعه شيخها واثنان من اعيانها وكانوا جميعا على متون الجياد .. وحيا

القائد الجميع بيده ، ولكن الجنود لم يهتفوا ـ كالمعتاد ـ بعبارات التحية ، وانما حنوا رءوسهم ، على حين وقف عدد منهم وبينهم ليوكا ، وقفة عسكرية وأعلن الجاويش أن كل شيء على مايرام ، وسرعان ما اتخذت الاجراءات الرسمية ، وكتبت المعاهدة ، وتسلم القائد الفدية ، وتقدم شقيق القتيل وزملاؤه لاستلام الجثة .

وقال قائد الجنود وهو يدير عينيه فى الحراس :

ـ من منكم يدعى ليوكا جافريلوف ؟.

فرفع ليوكا قلنسوته وتقدم من قائد الحامية قائلا :

ـ اننى تحت أمرك ياسيدى .

فرمقه القائد بامعان وقال :

ـ لقد أرسلت تقريرا الى الكولونيل ، ولا أدرى ماذا تم بشأنه ، وطالبت فى التقرير أن تمنح وساما لأنك أصغر سنا من أن ترقى الى رتبة جاويش ، هل تعرف القراءة والكتابة .

ـ لا ياسيدى .

ـ ولكنك فتى شجاع . وكنت أتمنى لو انك تعرف القراءة والكتابة .. حسنا .. ضع قلنسوتك على رأسك .

ثم استدار القائد الى بعض الحراس وقال :

ـ ساعدوا هؤلاء التتر على حمل الجثة .

وعاد ليوكا وجلس بجوار أولنين وهو مشرق الوجه بالسعادة ، وبعد أن فرغ الجنود من حمل الجثة الى القارب ، وثب شقيق القتيل اليه ، ثم استدار ودار بعينيه فى وجوه حراس المخفر وهو يتحدث الى المترجم الذى أشار الى ليوكا .

وظل شقيق القتيل مركزا نظراته على ليوكا كأنما يحفر صورته فى ذهنه . ولم تكن فى نظراته هذه أية معان للحقد أو الغضب ، وانما كانت احتقارا خالصا .

وبعد أن هدأ كل شيء ، قال ليوكا لأولنين الذين كان يدخن سيجارة :

ـ لماذا تدخن .. ان التدخين عادة سيئة وضاره للصحة

فرد أولنين قائلا :

ـ انها مجرد عادة .. لماذا تسأل ؟.

ـ لاشيء .. اننا نفكر فقط فيما يمكن أن يحدث لو أن احدامنا نحن القوزاق بدأيدخن .. حسنا .. كيف استطعت ان تعرف الطريق الى هنا عبر الغابة ؟.

فضحك أولنين وقال :

ـ الواقع أنى ضللت الطريق .. وقد جئت اليكم بمحض المصادفة .

ـ وهل تعرف كيف تعود !.

ـ لا .. مطلقا ..

ـ اننى على استعداد لأن اصحبك .. يمكنك أن تطلب هذا من الجاويش ..

وقال أولنين لنفسه :

ـ ما أجمله من فتى ؟.

ثم تذكر تقبيل ماريانكا له بالقرب من سياج البيت .. وعاد يقول لنفسه « ماهذه الحماقة والغباء .. هاهو ذا شاب قتل رجلا باسلا ومع ذلك يشعر بالسعادة والفخر وكأنه قام بعمل مجيد ! كيف لم يستطيع أن يدرك انه ليس هناك قط ما يدعو الى كل هذا الزهو وهذه السعادة ؟.

وقال احد الحراس وهو يعود من ضفة النهر :

ـ كن على حذر ياليوكا . الم تسمعه وهو يسأل عنك ؟ انه لن يستريح حتى يثأر لأخيه منك .

فرفع ليوكا رأسه وقال بصوت ينم عن الثقة بالنفس :

ـ اذا حاول أن يضع قدمه فى هذه الناحية ، فسيكون مصيره مصير أخيه نفسه .

وهز الحارس كتفيه وقال :

ـ ان هذا التترى كما يبدو لى شديد البأس .. وعليك ان تأخذ حذرك من الآن فصاعدا أيها الزميل .

فأرسل ليوكا ضحكة عريضة وقال :

ـ عليه ان يحمد الله اذ عاد الى قريته سالما .

وعندئذ سأله أولنين قائلا :

ـ لماذا أنت سعيد الى هذا الحد .. ماذا يكون شعورك لو أن أخاك هو الذى قتل ؟.

فنظر ليوكا الى أولنين بعينين ضاحكتين وقد فهم مقصده ، ومن ثم قال ببساطة :

ـ ان هذا يحدث دائما .. الا يغير هؤلاء التتر علينا بين الحين والآخر ويقتلون اخوانا لنا ؟.

***

الفصل العاشر

الهدية

وانصرف قائد الحامية وشيخ القرية . وقرر أولنين أن يرضى ليوكا ويتيح له فرصة زيارة القرية ، فطلب من الجاويش أن يسمح له بمرافقة ليوكا فى طريق العودة . وكان يعتقد أن الشاب يريد العودة الى القرية ليرى ماريانكا . ولم يتردد الجاويش فى اجابة أولنين الى طلبه .

وفى أثناء عودتهما الى القرية قال أولنين لنفسه :

« ان ليوكا يحب ماريانكا . وقد كان من الممكن أن أحبها أنا أيضا . ولكن من واجبى ان افسح الطريق لتنمية هذا الحب بين العاشقين » .

وغمره احساس بالعطف على ليوكا وماريانكا . وكان ليوكا يشعر بالسعادة الكاملة وهو يسير بجوار هذا الشاب الروسى الرقيق الذى أحس نحوه بصداقة مفاجئة .. وكان هذا الشعور المشترك يجعل الاثنين يرغبان فى الضحك كلما التقت نظراتهما .

وقال اولنين وهما يقتربان من احدى البوابتين :

ـ أى هاتين البوابتين أقرب الى المكان الذى تريد الذهاب اليه .

قرد ليوكا قائلا :

ـ اننى سأمضى معك الى اقرب مكان لمسكنك .. لا تخشى شيئا .

فضحك اولنين وقال :

ـ اننى لست خائفا ولكننى لا اريد ان أثقل عليك .

ـ لا .. لا .. مطلقا .

ـ حسنا .. هل يمكنك أن تنزل ضيفا على لتشرب معى كأسا من النبيذ الأحمر ؟ .

ـ ان الجاويش طلب منى أن اعود الليلة .

ـ حسنا .. يمكنك أن تعود بعد أن نجلس ونتبادل الحديث ونشرب كأسا من النبيذ معا .

وبعد برهة صمت قال اولنين :

ـ لقد سمعتك امس تغنى .. ورايتك ..

ـ آه .. اننا بشر .

فأومأ اولنين برأسه ثم قال :

ـ هل حقا تنوى الزواج كما سمعت ؟ .

ـ ان أمى تريد هذا .. ولكننى لم أمتلك جوادا بعد .

ـ الست جنديا فى الجيش العامل ؟ .

ـ لا .. اننى التحقت بالجيش منذ عهد قريب . وليس لى حق فى الحصول على جواد من الجيش الآن . ولست أدرى كيف يمكننى الحصول على واحد منها . اننى لن أستطيع ان اتزوج قبل أن يكون لى جواد .

ـ كم ثمن الجواد ؟ .

فصمت ليوكا برهة قبل ان يرد قائلا :

كنا نتحدث عن شراء جواد فى الضفة الأخرى من النهر وقد قيل لى ان اقل ثمن للجواد العادى هو سنين روبلا .

وفجأة قال أولنين :

ـ ما رأيك لو التحقت بخدمتي وأصبحت مراسلة لي ؟. انني أستطيع أن ارتب الأمر مع قائد الحامية وسوف اعطيك جوادا ،لأن لدى جوادين .. ويمكنني الاستغناء عن أحدهما .

فضحك ليوكا قائلا :

ـ ماذا تعني بهذا ؟ ولماذا تقدم الى مثل هذه الهدية ؟ .. ان في مقدوري أن أحصل على جواد بوسيلة ما .

وارتبك أولنين قليلا .. لقد اراد ان يقول شيئا ، ولكنه لم يعرف ماذا يقول . واخيرا غمغم قائلا :

ـ الا تريد أن تكون مراسلة لي ؟.

ـ لا ..

ـ حسنا .. ولماذا لاتريد أن تقبل جوادا هدية مني !.

وبعد برهة صمت .. قال ليوكا :

ـ الديك بيت في موسكو ؟.

ولم يجد أولنين مفرا من ان يقول له ان لديه عددا كبيرا من البيوت في موسكو .

وعندئذ قال ليوكا :

ـ بيوت أكبر من بيوتنا ؟.

ـ نعم .. اكبر جدا .. ارتفاع كل بيت يزيد على ثلاثة طوابق.

ـ وهل لديكم جياد مثل جيادنا ؟.

ـ ان لدى مئات من الجياد .. كل واحد منها يساوى ثلثمائة أو اربعمائة روبل فضى .. ولكنني أحب جيادكم .

وبعد مسيرة خطوات أخرى في صمت ، قال ليوكا :

ـ وما الذى جاء بك الى هنا ؟ هل جئت بمحض ارادتك ، أم ارغمك احد على المجيء ..

ثم أشار الى منعطف فى ممر الغابة وأردف قائلا :

ـ اترى .. هاهو ذا المكان الذى ضللت فيه طريقك .. كان يجب ان تنحرف الى اليمين بدلا من اليسار .

ورد أولنين على سؤاله قائلا :

ـ لقد جئت بمحض رغبتى .. اردت أن ارى بلادكم وان اشترك فى بعض الحملات العسكرية .

ـ آه .. لشدما اتمنى لو استطعت الاشتراك فى هذه الحملات يوما .. أتسمع عواء هذه الذئاب ؟.

ـ اخبرنى ياليوكا .. الم تشعر بالرهبة وانت تقتل رجلا .

ـ الرهبة ؟ لماذا ؟ وكيف اشعر بالرهبة وأنا اريد الاشتراك فى أعدى الحملات العسكرية !.. ارجو ان تتيح لى هذه الفرصة يوما .

فهز أولنين كتفه وقال :

ـ من يدرى .. فربما اشتركنا معا فى احدى هذه الحملات قبل الاحتفال بالعيد .

ـ اننى على كل حال لا اكاد اعرف سببا يبرر مجيئك الى هنا . أن لديك جيادك ، واملاكك ، وعمال مزارعك . لو كنت مكانك ، لما تركت هذا كله لأعيش فى مثل هذه البرارى البعيدة عن العمران ، ما هى رتبتك ؟.

ـ اننى ضابط متطوع ، ولكننى مرشح للترقية قريبا .

وهز ليوكا راسه فى حيرة وقال :

ـ لنفرض انك صادق فيما تقول ، فلماذا جئت الاقامة هنا ، أننى لا اجد ما يبرر هذا التصرف ؟ هل انت مسرور باقامتك معنا ؟.

ـ كل السرور .

وكان الظلام كثيفا عندما وصلا فى النهاية الى القرية . وما كاد اولنين يصل الى الكوخ ، حتى اسرع الى المربط وعاد بجواد من جواديه .. وكان قد اشتراه من مدينة جروزنى بثمن زهيد ، لانه كان جوادا عاديا فى العاشرة من العمر .

ولما قدمه الى ليوكا ، قال هذا فى دهشة بالغة :

ـ عجبا ؟ لماذا تقدم الى هدية ثمينة كهذه وانا لم افعل من اجلك شيئا ؟.

وكان اولنين فى تلك اللحظة يشعر بسعادة غامرة .. كان يشعر انه سعيد فى هذه القرية القوزاقية .. وانه امسى جزءا منها ، يحبها ، ويحب اهلها ، ويحب ليوكا وكأنه يعرفه منذ الطفولة.

ولما كرر الشاب عليه السؤال ، افاق من تفكيره وقال بصوت هادىء :

ـ انني لم افعل شيئا كبيرا ، ارجو ان تقبل هذه الهدية المتواضعة ولا شك ان الأيام ستتيح لك الفرصة لتقدم لى صنيعا كبيرا .. ومن يدرى .. فلعلنا نشترك معا فى احدى الحملات العسكرية .

وازداد شعور ليوكا بالارتباك . وعاد يقول دون ان ينظر الى الجواد

ـ ولكننى لا زلت مندهشا . انك تقول انك فى غير حاجة الى هذا الجواد .. فهل يمكن أن يكون الانسان فى غير حاجة الى جواد .. اى جواد ؟.

ـ اود .. ارجو ان تقبله .. انك اذا رفضت هذه الهدية فسوف تجرح شعورى .

ثم اردف قائلا لفانيوشا :

ـ قدم له الجواد ..

وقال ليوكا وهو يمسك بعنان الجواد :

ـ حسنا .. اننى لا أستطيع أن أعرب لك عن مبلغ سعادتى بهذه الهدية ولكننى لا زلت مندهشا فاننى لم أسمع فى حياتى بشىء مثل هذا .

وقال أولنين وهو يشعر بسعادة غلام فى الثانية عشرة من عمره :

ـ اربط الجواد هنا . انه جواد طيب . لقد اشتريته من إجروزنى . هلم يا فانيوشا ..

احضر لنا بعض النبيذ .. ولندخل معا يا ليوكا لنشرب !

وجلس ليوكا فى الكوخ . واقبل فانيوشا بالنبيذ ، وقال وهو يرفع كأسه :

ـ اسأل الله أن أتمكن يوما من رد جميلك .. ما اسمك يا سيدى ؟.

ـ أولنين ديمترى أندرفيتش .

ـ حسنا يا سيدى .. ليباركك الله ، ولكن أخوين مدى الحياة . وارجو أن تتكرم بزيارتنا يوما . اننا لا نملك كثيرا ، ولكننا نعرف كيف نكرم أصدقاءنا . وسوف اخبر امى لكى تقدم اليك كل ما تحتاج له .. من زبدة أو عنب .. واذا جئت الى المخفر ، فسوف اكون خادمك المطيع ، سوف أصحبك الى الصيد ، أو امضى بك عبر النهر أو الى اى مكان تريد .

ثم صمت مفكرا وعاد يقول :

ـ لو انك جئت الينا منذ أيام ، لجعلتك تشترك معنا فى صيد الخنزير البرى الذى ظفرنا به ..

ـ شكرا جزيلا يا ليوكا ..

واقترب ليوكا برأسه من رأس أولنين وهمس قائلا :

ـ وهناك شىء آخر لعلك تريد أن تعرفه .. ان لى صديقا

تتريا يدعى جيرى خان . لقد طلب منى أن اذهب ذات ليلة لنظفر ببعض الجياد البرية فى هضاب فوجاى .. فهل تحب أن تشترك معنا فى هذه المغامرة .. لسوف أكون حارسا لك .

وربت أولنين على كتف ليوكا وقال :

ـ نعم .. نعم .. لسوف نذهب معا ذات يوم .

وتراخى ليوكا فى جلسته وكأنما شعر أخيرا انه يجلس مع صديق حميم . وكان أولنين فى دهشة لبساطته وهو يتبادل معه الحديث وفى النهاية ، وبعد أن لعبت الخمر براس الشاب القوزاقى ، نهض وصافح أولنين منصرفا .

وبعد انصرافه ، أطل أولنين من نافذته ليرى ماذا سيفعل الشاب ليوكا .. وكان هذا يعبر الفناء مطرقا ، حتى اذا وصل الى البوابة ، فك عنان الجواد ، ووثب على ظهره فى خفة القط ، وانطلق به راكضا فى طول الشارع ، وكان اولنين يعتقد ان ليوكا سوف يذهب الى ماريانكا ويخبرها بامر الهدية وبانه قد ظفر اخيرا بالجواد الذى كان لا بد له أن يحصل عليه قبل الزواج. ولكن برغم أن ليوكا لم يفعل هذا ، فقد شعر اولنين بالغبطة والرضا ، واحس انه سعيد تماما بنفسه وبالدنيا كلها .. كان سعيدا كالطفل .. ولم يستطع أن يملك نفسه من اخبار فانيوشا بأنه أهدى الى ليوكا جوادا ، ثم ذكر له السبب فى تقديم هذه الهدية ،وبعد ذلك راح يشرح نظريته عن السعادة ولكن فانيوشا لم يستطيع أن يهضم هذه النظرية قائلا انه لايملك اموالا يلقى بها هكذا فى الطريق .

ومضى ليوكا الى بيته ، وترجل عن جواده ، وسلمه الى أمه وطلب منها أن تذهب به الى جياد القرية ليرعى العشب معها . وكان عليه أن يعود الى المخفر فىالليلة نفسها . ولما علمت امه بأمر الجواد ، وكيف ظفر ليوكا به ، هزت راسها فى دهشة وهى تعتقد فى قرارة نفسها ان الجواد لا بد أن يكون مسروقا .

وعاد ليوكا فى الطريق الى المخفر وهو مستغرق فى افكاره حول تصرفات أولنين فبرغم ان الجواد لم يكن فى رأيه يساوى اكثر من اربعين روبلا ، فانه كان سعيدا بهذه الهدية . ولكنه لم يستطيع أن يجد سببا واحدا يبرر هذا التصرف العجيب وكان بسبب هذا العجز عن فهم سر الهدية لا يشعر بالشكر أو عرفان الجميل ، بل على العكس ، كانت الشكوك تملأ نفسه فى نوايا أولنين . انه لايعرف ماذا يريد أولنين منه ، ولا لماذا يقدم اليه هدية ثمينة كهذه وهو لا يكاد يعرفه !. ان احدا لم يسمع من قبل أن رجلا اهدى جوادا ثمنه اربعين روبلا لانسان غريب عنه . ولو كان أولنين مخمورا حين قدم هذه الهدية ، لالتمس ليوكا له العذر . ولكنه كان فى تمام وعيه . اذن ليس هناك غير معنى واحد لهذا التصرف ، وهو ان أولنين أراد أن يرشوه ليؤدى له عملا منكرا .. وقال لنفسه : حسنا .. اذا كان هذا هو هدفه فلا خوف على .. لقد ظفرت بالجواد . ولسوف نرى ماذا سيحدث بعد ذلك . اننى لست ساذجا ، وسوف نرى من هو الساذج منا .. انا ام هو .

وازداد احساسا بأن عليه أن يحمى نفسه من نوايا أولنين الشريرة ، وهكذا تحولت مشاعره من الصداقة الى العداء والنفور

ولم يذكر لأحد كيف ظفر بالجواد .. قال للبعض انه اشتراه، وراوغ البعض فى الاجابة عندما سألوه .. ولكن الحقيقة انتشرت فى انحاء القرية . ولما وصلت الى مسامع ماريانكا وامها وابيها وغيرهم من القوزاق بدءوا يتخذون حذرهم من هذا الروسى . ولكنهم برغم مخاوفهم كانوا يشعرون بالاحترام الشديد نحو هذا الروسى الكريم .

كان بعضهم يقول للبعض الآخر :

ـ هل سمعت بما حدث ؟. ان هذا الروسى الذى يقيم فى

أكوخ ايليا المعلم قد أهدى جوادا لليوكا .. لا شك انه واســـع الثراء .

ويرد عليه أحدهم قائلا :

ـ نعم سمعت .. لا شك أن ليوكا قد أدى له خدمة جليلة .. لسوف تعرف الحقيقة يوما .. وايا كان الأمر ، فان الحظ دائما يسعى فى ركاب ليوكا .. الخطاف .

الفصل الحادى عشر

الوليمة

عاش اولنين فى القرية القوزاقية عيشة هادئة رتيبة . وكاد عمله فى المعسكر لا يستغرق منه الا ساعة أو بعض ساعة بين الحين والآخر . وكان المعتاد أن تطلق الحرية فى التصرف للضابط المتطوع فى الجيش اذا كان من الطبقة الثرية فى المجتمع . ومن ثم لم يكن مفروضا عليه أن يقوم بعمل معين ، و أن يشترك فى التدريبات العسكرية بعد أن اثبت جدارته خلال المعارك التى اشترك فيها مما جعل رؤساءه يطالبون بترقيته . ولهذا ترك وشانه فى سلام . وكان الضباط يعتبرونه أحد أفراد الطبقة الارستقراطية ، ومن ثم كانوا يتجنبونه ولا يشركونه معهم فى أسمارهم والعابهم للورق وحلقات غنائهم . ولم يكن هو – من جانبه – يهتم كثيرا بهذا كله . كما كان ايضا لا يحذو حذوهم فى انطلاقاتهم بالقرية ، يعبثون ، ويغازلون العذارى ، ويتصلون بالنساء ، بل ويتزوجون أيضا . وكان اولنين يحب أن يحيا حياته الخاصة وأن يتجنب الطرق المعتادة المطروقة . وكان يتبع هذا التقليد فى حياته بالقرية القوزاقية .

وكان يستيقظ فى الصباح الباكر بطبيعته . وبعد أن يشرب الشاى فى الشرفة ويستمتع بمنظر الجبال والصباح

وماريانكا ، يرتدى سترته المصنوعة من جلد الثيران ويدس خنجره فى حزامه ، ويحمل بندقيته وكيسه الصغير المحتوى على طعام الغذاء والتبغ ، ويستدعى كلبه ويمضى بعد الخامسة بقليل الى الغابات الممتدة وراء القرية وفى نحو السابعة مساء يعود متعبا جائعا ، حاملا نحو ست او سبع بطات برية الا انه من المستحيل عليه ان يعرف فيم كان يفكر فى خلال رحلاته اليومية هذه للصيد هل كانت الأفكار تدور بذهنه ، أو الذكريات أو الأحلام . فى بعض الأحيان كان شيء من هذا كله يمر بذهنه مرا سريعا خاطفا ، فاذا تنبه من خواطره سأل نفسه عم كان يفكر فيه ؟ وفى بعض الأحيان كان يظن انه كان يتصور نفسه مواطنا قوزاقيا يعمل فى الحقول والبساتين مع زوجته القوزاقية ، أو تتريا يعيش فى الجبال ، او وعلا يهرب من الصياد ، وفى خلال هذا كله كان لا يكف عن التلفت حوله عسى أن يلمح بطة أو غزالا أو خنزيرا بريا .

وفى الأمسيات كان الصياد ايروشكا يأتى ويجلس معه ،وكان أحيانا يحضر معه النبيذ الاحمر ، فيجلسان معا ويتبادلان الحديث ويشربان حتى يأويا الى الفراش وفى الصباح يمضى الى الصيد مرة اخرى وهكذا . وفى ايام العطلات والاعياد ، كان يمضى اليوم كله فى الكوخ . وكان يشغل نفسه طيلة الوقت بمراقبة ماريانكا وهى تقوم بأعمال البيت المختلفة . ودون أن تشعر هى بنظراته التى تلاحقها . وكان يتأمل الفتاة الحسناء ويحبها ، أو هكذا كان يظن ، كما يحب الانسان مناظر الطبيعة الجميلة ومن ثم لم يخطر بباله ان تتطور علاقته بها الى أكثر من هذا . لم يخطر بباله قط ان تقوم بينه وبينها علاقة مثل تلك التى كانت قائمة بينها وبين القوزاقى ليوكا . وكان يشعر انه لو سار على نهج زملائه الضباط وحول اعجابه بماريانكا الى غرام ، لجلب على نفسه ـ وربما عليها ايضا ـ متاعب وآلاما ليس لها مايبررها . هذا فضلا عن شعوره العميق بأن سلوكه هذا نحوها ينطوى على لون من انكار الذات.. مما أضفى عليه احساسا بالرضا والسعادة . ولكن اهم شيء فى الموضوع كله انه كان يرهب ماريانكا ولا يجرؤ على ان يوجه اليها كلمة حب ..

وفى يوم من أيام الصيف ، عندما كان اولنين جالسا بكوخه لانه لم يشعر بالرغبة فى الصيد ، اقبل عليه فجأة شاب كان قد تعرف به فى احدى الحفلات الساهرة بموسكو .

وقال الشاب بمزيج من اللغة الروسية واللغة الفرنسية شأن الطبقة الأرستقراطية يوم ذاك :

ـ أوه .. ماأسعدنى بلقائك ياعزيزى ، ولشدما كانت بهجتى حين عرفت انك تقيم هنا .

وصمت برهة قبل أن يستطرد قائلا :

ـ لقد قيل لى ان اولنين هنا ، احقا ؟ اولنين ؟ ان هذا لشىء عظيم ان اولنين من اعز اصدقائى . تصور كيف يجمع بيننا القدر فى هذا المكان ! ماذا تفعل هنا ياعزيزى ؟ .

وكان الشاب هو الأمير بلنسكى ، وقد راح يتحدث فى اسهاب عن الظروف التى دفعت به للالتحاق بالجيش القوزاقى ، وعن الوعود التى قطعها له قائد الجيش ليجعله أحد اركان حربه بعد أن يتدرب على القتال فى مختلف المناطق العسكرية . وانثنى من هذا الحديث الى الثرثرة عن الحياة الاجتماعية فى موسكو ، وعن مغامراته الغرامية التى لاحصر لها . وكان أولنين ينصت اليه فى ضيق شديد لأن كل شىء فى حديثه وتصرفاته كان يذكره بالحياة المتعفنة المنحلة التى يحاول أن يهرب منها فى هذه القرية القوزاقية النائية . لقد بدا له ، وهو ينظر الى بلنسكى وينصت اليه ، أن عالمه القديم الذى يحاول الفرار منه ، قد لحق به فجأة . وشعر بالغضب من بلنسكى ومن نفسه ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا غير الجلوس والانصات الى هذه الثرثرة المزعجة .

ولم ينصرف الأمير الشاب الا بعد أن جعل أولنين يعده بالزيارة بين الحين والآخر . ولكن أولنين كان فى قرارة نفسه قد ازمع أن يتجنب بلنسكى بقدر الامكان . أما فانيوشا ، فكان سعيدا بهذه الزيارة ، لانها اعادت اليه شيئا من حياته الحافلة فى موسكو .

وانغمس بلنسكى فورا فى الحياة بالقرية القوزاقية كأى ضابط

شاب واسع الثراء وما أن مضى شهر حتى أصبح كأنه واحد من أهلها ، يعرف الجميع ، ويعرفه الجميع ويقدم الخمر للعجائز من الرجال ، وهدايا الأسلحة للشبان ، والحلوى والمطارف للعذارى والنساء ويقيم على نفقته الولائم وحفلات الشاى التى كان يدعو اليها عذارى القرية وكن يدعونه ـ لسبب ما ـ بكلمة « بابا » . وكان طبيعيا أن يغدو موضع اعجاب وحب الجميع ، على حين كان الجميع ينظرون الى اولنين المنطوى على نفسه نظرتهم الى مخلوق شاذ .

❋●❋

كانت الساعة الخامسة فى بكور الصباح ، وكان فانيوشا يوقد النار فى الفناء تحت ابريق الشاى وقد جعل من حذائه الطويل منفاخا لاضرام النار . وكان أولنين قد مضى ليستحم مع جواده فى نهر تيريك اذ كانت السباحة احدى هواياته . وكانت ربة البيت العجوز أولتيكا مشغولة باشعال الفرن لاعداد وجبة الافطار . اما ماريانكا ، فكانت فى حظيرة الماشية تحلب اللبن .

وبعد لحظات سمع الجميع دقدقة حوافر جواد فى الشارع ، وما لبث أولنين أن دخل الفناء معتليا صهوة جواده الجميل المتألق بالماء ، واطلت ماريانكا براسها من الحظيرة ، ثم عادت الى عملها . ولكن اولنين ظن انها لاتزال تختلس النظر اليه فشعر بالزهو والاختيال ، وخيل اليه انها تختلس النظر الى جواده الفاخر ، والى ملابسه الأنيقة ، والى مظهره العام الذى يجمع بين فتوة الشباب ، وكرم المحتد ، ووفرة المال .

وصاح بلهجة طروب قائلا لفانيوشا :

ـ الشاى يافانيوشا .. وبسرعة .

وفيما هو يدخل الكوخ ، نظر بسرعة الى باب الحظيرة ، ولكنه فوجىء بماريانكا لا تنظر اليه . وانما كانت مستغرقة فى حلب الأبقار .

وبعد أن شرب الشاى وتناول الافطار ، جلس فى الشرفة وبين يديه كتابه ، ولكنه لم يستطع أن يقرأ فيه سطرا ، لأنه راح يرقب

ماريانكا ، بعد أن ذهبت بالابقار والجاموس الى المراعى ، وعادت لتقوم بأعمال البيت ، ويتأمل كل حركة وسكنة منها وكانت هى تختلس النظر اليه بين الحين والآخر وتلتمع فى عينيها نظرة الفتاة المزهوة بجمالها .. الشاعرة بتأثير هذا الجمال على قلوب الرجال

وفجأة أقبل بلنسكى فى ملابس ضابط بالجيش القوزاقى وقال لأولنين محييا :

ـ طاب يومك ياصديقى العزيز ؟ .

فصافحه أولنين قائلا :

ـ طاب صباحك يابلنسكى .. ما الذى دعاك الى الاستيقاظ فى هذه الساعة المبكرة !.

ـ ليس الأمر بيدى .. لقد أيقظونى مبكرا للاستعداد لحفلة العشاء الليلة فى بيت أوستنكا .. هل ستأتين يامارياتكا ؟ .

ودهش أولنين حين رأى بلنسكى يتحدث الى ماريانكا وكأنه عرفها منذ مدة طويلة ، على أن ماريانكا تركت الفناء ، وكأنها لم تسمع شيئا ، واتجهت نحو حظيرة الأبقار .

وصاح بلنسكى قائلا :

ـ هل تشعرين بالخجل منى يافتاتى الجميلة ؟ .

ثم اردف قائلا لأولنين :

ـ الواقع أنها تشعر بالخجل منك انت يا أولنين .

وقال أولنين :

ـ ماهذه الوليمة التى تتحدث عنها يابلنسكى ؟ .

ـ أن أوستنكا ستقيمها الليلة فى مسكنها ، على نفقتى طبعا . وسوف يحضرها عدد من عذارى القرية ، وسنأكل فيها الوانا من الطعام القوزاقى الشهى .. وقد جئت لأدعوك .

وقال أولنين :

ـ ولكن ماذا سنفعل فى هذه الوليمة ؟ .

وغمز بلنسكى بعينه وهو يومىء الى حظيرة الأبقار ، وأضطرم وجه أولنين وقال وهو يهز كتفيه :

ـ انك شاب غريب الأطوار يابلنسكى .

ـ أوه .. دعك من المراوغة وصارحنى بالحقيقة .

وقطب أولنين جبينه ، ولكن بلنسكى ابتسم فى مكر وقال :

ـ هلم صارحنى ؟ هل تريد ان تقول انك لا .. لا تستمتع بوقتك مع فتاة جميلة كهذه .. وانت تسكن معها فى مكان واحد ؟.

ولما صمت أولنين ، قال بلنسكى كأنما يحدث نفسه :

ـ انها انموذج للجمال الكامل .

ـ نعم .. انها جميلة الى حد مذهل يابلنسكى .

ـ حسنا .. وماذا بعد ؟

ـ ربما تدهش يابلنسكى حين تعرف الحقيقة . اننى منذ أقمت هنا لا اهتم بالنساء ولماذا أهتم بهن والفوارق بينى وبينهن ضخمة؟ أما ايروشكا الصياد العجوز ، فالأمر معه يختلف .. اننا نشترك معا فى هواية الصيد .

فقال بلنسكى ضاحكا :

ـ ولكن الأمر معى يختلف . ان النساء فى نظرى هن النساء فى كل مكان وفى اى مكان .. المرأة هى المرأة ، سواء فى موسكو أو فى القوزاق .

فهز أولنين رأسه وقال :

ـ لاياعزيزى ، اننى لاأعبث بالنساء فى موسكو ولكننى لااحترمهن .. أما نساء هذه القرية فانى أشعر نحوهن بالاحترام الكامل .

ـ حسنا .. استمر فى احترامك لهن .. ولن يمنعك احد

ولم يجب أولنين . وكان يبدو عليه انه يريد الاستمرار فى الاعراب عن رايه بالنسبة للمرأة القوزاقية .. ومن ثم استطرد يقول :

ـ اعرف اننى شاذ فى تصرفاتى امامك . ولكن الحياة هنا جعلتنى اعتنق مبادىء معينة اهمها الحرص على احترام نفسى

واحترام غيرى ، وهذه المبادىء تملأ قلبى بالرضا والغبطة . ولو اننى سرت فى طريقك . لفقدت هذا الشعور بالسعادة . وعـــدا هذا فانا اتطلع الى شىء مختلف ، وقد وجدت هنا لونا مختلفا من الوان الحياة وهذا مالا تراه أنت .

ورفع بلنسكى عينيه فى عجب وقال :

ـ على كل حال ارجو ان تحضر الوليمة الليلة وستكون ماريانكا معنا . وتأكد انى سأعرفك بها . وأرجو الا تتخلف . ويمكنك أن تنصرف فى اى وقت اذا شعرت بالملل .. فهل ستأتى ؟.

ـ نعم .. ولكننى اصارحك بأنى اخشى على نفسى من الوقوع فى الحب .

فضحك بلنسكى عاليا وقال :

ـ اها ! لسوف ارعاك واحرسك .. فهل ستاتى ؟.

ـ سأحاول ..

ـ اوه .. ماهـــذا بحق الســـماء ؟ لماذا تعيش هنا كالراهب يا أولنين ؟ ايليق ان تترهب فى قرية زاخرة بالجميلات الفاتنات؟.. لمـــاذا تفسد حياتك وتحرم نفسك مباهجها ؟ هل سمعت أن فرقتنا سوف تنتقل الى نوزدشنك .

فرد اولنين قائلا :

ـ لا لم اسمع ! وانما سمعت فقط أن الفرقة الثامنة هى التى ستنتقل الى هناك .

ـ لقد تسلمت رســـالة من رئيس أركان القيادة العليا يخبرنى فيها ان فرقتنا سوف ترسل الى ميدان القتال فى نوزدشنك . وانى سعيد بهذا ، لأنى ضقت ذرعا بحياة الخمول والركود هنا .

ـ لقد سمعت اننا نستعد للقيام باغارة قريبة !.

ـ اننى لم اسمع بهذا ، ولكننى علمت أن كردنوفزن نال وسام القديسة حنة لحسن بلائه فى الاغارة السابقة . وكان المسكين يتمنى أن يرقى الى رتبة يوزباشى .. ومن ثم ذهب الى قيادة الجيش ، واستمر بلنسكى فى الثرثرة حتى انصرف .

وعند اقتراب المساء ، تحولت أفكار اولنين الى الحفلة التى دعاه اليها صديقه الأمير . واستبدت به الحيرة . كان يريد ان يذهب وكان فى الوقت نفسه يخشى أن يبدو غريبا منطويا على نفسه .. وكان يعلم أن مثل هذه الحفـــلات لايحضرها الرجـــال أو النساء والعجائز ، وانما الفتيات فقط : فكيف ستكون ؟ وكيف سيتصرف خلالها !.. وماذا سيقول ، وعن اى شىء سيدور الحديث وكيف سيتصرف مع هؤلاء العذارى القوزاقيات الوحشـــيات !.. واذا حضرت ماريانكا ، فماذا يقول لها ، وكيف سيتصرف معها . ايمكن أن يوطد علاقته بها رغم نفورها منه ، ان بلنسكى يؤكد له أن المراة هى المراة .. فى موسكو ، أو فى القوزاق ، فهل يذهب ليرى مقدار مافى هذه الآراء من حقيقة ؟.

وخرج من الكوخ مرتديا أجمل ملابسه . ولما وصل فى مسيره الى بيت بلنسكى لم يسعه الا أن يدخل .

وكان كوخ بلنسكى يشبه تماما كوخ اولنين . كان يقوم عـلى دعائم خشبية ترتفع عن الأرض نحو خمس اقدام ، ويتكون من غرفتين الأولى تحتوى ـ كما لاحظ اولنين عند دخـوله ـ على حشايا من الريش ووسائد وسجاجيد منسقة فى جوانب الغرفة بذوق جميل ، وعلى الجدران رأى الأسلحة ، والأوانى النحاسية معلقة ، وتحت احدى الأرائك شاهد كمية من البطيخ والشمام . اما الغرفة الاخرى فكان بها فرن كبير ، ومائدة ، واريكتان وبعض الأيقونات المطلية بألوان زاهية . وكانت هذه الغرفة هى المخصصة لاقامة بلنسكى ومن ثـم كان يضع فيها سريره الصغير وحقائبه وحاجات السفر .

اما بلنسكى نفســـه فكان راقدا فى سريره ، مرتديا قميصـا وسراويل ، ويقرأ كتابا فرنسيا . وما أن وقعت نظراته على اولنين حتى وثب وقال هاتفا مرحبا :

ـ آه .. لقد جئت ! أترى كيف اعيش يا صديقى ؟ لا بأس .. آه اننى مسرور بحضورك .. وبهذه المناسبة اخبرك أن الاستعدادات للحفلة قائمة على قدم وساق . ان الفطائر القوزاقية شهية المـذاق انها محشوة باللحم والزبيب ، انظر الى مايجرى فى كـوخ اوستنكا

ونظر أولنين من النافذة ، ورأى عددا من الفتيات يهرعن الى الكوخ وهن حاملات الأوعية والأوانى وأطباق الطعام والشراب .

وصاح بلنسكى قائلا لهن :

ـ هل أعددتن كل شىء يابنات .

وردت اوستنكا قائلة :

ـ بعد لحظات أخرى .. هل « بابا » جائع .

ثم أقبلت الى غرفته بجسمها المتلىء وقد شمرت عن ساعديها لتحمل بعض الأوانى .. ولما حاول بلنسكى أن يداعبها ، راغت منه وهى تضحك قائلة :

ـ حذار يا «بابا » .. ان الأوانى قد تقع من يدى .

ثم قالت لأولنين وهى مستمرة فى الضحك :

ـ يحسن أن تأتى وتساعدنا فى الاعداد . ولا تنس أن تحضر معك بعض الحلوى للبنات .

وكانت تقصد بالحلوى فطائر الزنجبيل والبونبون .

ـ وهل حضرت ماريانكا ؟.

ـ نعم .. طبعا .. وقد أحضرت لنـــا معها بعض المكسرات.

وقال بلنسكى لأولنين بعد انصراف أوستنكا :

ـ اتعرف ! لو اننى جعلت اوستنكا ترتدى وتتزين على نمـط النساء فى موسكو ، لبدت ابهى واجمل منهن جميعا . أرايت تلك المرأة القوزاقية التى تزوجها الكولونيل بورشيف انها أروع من ملكة فى جمالها وعظمتها .

فرد أولنين قائلا :

ـ اننى لاأعرف زوجة بورشيف ، ولكننى لااعتقـــد أن المرأة القوزاقية تبدو أجمل وأبهى فى ملابس أخرى غير ملابسها الوطنية هـــذه .

وتنهد بلنسكى فى ارتياح وقال :

ـ اننى سعيد بقدرتى على التكيف مع أى لون من الوان الحياة حسنا ، لسوف أذهب وأرى ماذا يفعلن .

ثم نهض وقال وهو يسرع بالخروج :

ـ ولا تنس أنت أن تحضر معك الحلوى .

وقدم أولنين مبلغا كبيرا لجندى المراسلة الخاص ببلنسكى وطلب منه أن يشترى كمية من فطائر الزنجبيل والبونبون ..

وسأله الجندى قائلا :

ـ كم فطيرة زنجبيل أشتريها وكم فطيرة بعسل النحل ؟.

ـ اشتر أى عدد تشاء .

ـ هل انفق المبلغ كله ؟.

ـ نعم .. كل المبلغ .

وجلس أولنين الى النافذة يرقب مايجرى فى كوخ أوستنكا .

وكان يسمع من مكانه رنين ضحكات الفتيات وهن يتسابقن فى اعداد الحفلة وقد ازداد ضحكهن عندما رآهن يطردن بلنسكى من الكوخ . وعاد الشاب يضحك عاليا ويحدث أولنين بما فعله معهن وبعد لحظات ، اقبلت أوستنكا بكل وقار ودعت الشابين الى الحفلة قائلة ان كل شىء قد تم اعداده .

ولما دخلوا الكوخ الآخر ، وجد أولنين ان كل شىء قد تم اعداده حقا .. كانت الحشايا والوسائد موضوعة بجوار الجدران فى تنسيق جميل ، وكانت المائدة المنخفضة فى وسط الغرفة تحمل أوعية النبيذ والكئوس والفطائر المختلفة والوان من الاسماك المجففة واللحوم الباردة . وفى ركن من الغرفة ، بجوار الفرن ، كان ثمة ست فتيات فى ملابسهن الحريرية الزاهية ، وبلا عصائب على رءوسهن ، تتبادلن الأحاديث والضحكات .

وقالت أوستنكا لضيوفها :

ـ ارجو أن تشرفونى وتتقدموا الى المائدة .

ولما رأى أولنين ماريانكا بين الفتيات ـ الجميلات جميعا ـ شعر بالحرج الشديد ولم يدر ماذا يقول . ومرة أخرى احس انه غريب فى هذا المكان . ولكنه قرر أن يقلد بلنسكى فى كل مايقول أو يفعل وتقدم بلنسكى نحو المائدة فى وقار ، ورفع كأسه ليشرب نخب أوستنكا ، ثم دعا الفتيات ليشربن معه . ولكن أوستنكا قالت :

ـ ان التقـاليد تمنع الفتيات من شرب النبيذ فى هذه الحفلات

وهنا قالت الفتيات بصوت جماعى :

ـ ولكننا لانجد بأسا من أن نشربه ممزوجا بعسل النحل .

وفى تلك اللحظة أقبل جندى المراسلة يحمل لفائف كبيرة من الفطائر والحلوى ، واستقبلته الفتيات بالهتاف والترحيب ، وسرعان ما أخذ أولئين يوزع عليهن هداياه ، وبعدها أخذت الفتيات والشبان يأكلون ويشربون ويتبادلون الغزل والضحك .

ورغم هذا كله ، فقد ظل أولئين يشعر بالحرج والارتباك كلما تلاقت نظراته بنظرات ماريانكا .

الفصل الثانى عشر

يشاهد على صبه ماريانكا

قال بلنسكى لماريانكا بعد أن فرغوا من الطعام :

ـ ماريانكا .. كيف لم تتعرفى حتى الآن بنزيلكم أولنين ؟.

فقالت ماريانكا وهى ترسل نظراتها الى أولنين :

ـ وكيف اتعرف عليه وهو لم يحاول أن يزورنا يوما ؟.

وجفل أولنين واضطرم وجهه ..

وقال بلا تفكير :

ـ أننى مازلت خائفا من والدتك منذ استقبلتنى أول مرة ..

فانفجرت ماريانكا ضاحكة وقالت :

ـ اذن فانت خائف منها !.

ثم استدارت عنه .

وكانت اول مرة يرى فيها أولنين وجهها كله ، دون أن تخفى جانبا منه بمنديلها ، ومن ثم أدرك فورا لماذا تسمى فى القرية ملكة جمال النساء .

ولما استدارت عنه ، شعر بالضيق ، وقرر أن ينصرف ، ولكن بلنسكى أمسك بذراعه وقال له محتجا :

ـ الى اين ياصديقى ؟.

فقال مراوغا :

ـ لاشترى بعض التبغ .
ـ انتظر وسوف ارسل الجندى التابع لى لشراء ماتريد .
ثم همس فى اذنه قائلا :
ـ لاتنصرف الآن .. لسوف نضع نقودا فى اناء أوستنكا الفضى بعد كل كأس نشربها .. هذا هو التقليد المتبع .. لأن الليلة عيد ميلاد أوستنكا .

وقال اولنين بنفس الصوت الخافت :
ـ خذ كل مالدى من نقود وضع فى انائها ماتريد بدلا منى .. لقد شربت كفايتى .

ـ لا .. اذا انصرفت الآن فسوف تكون موضع احتقار الجميع . ولم يسع اولنين الا ان يبقى ، والا ان يشرب النبيذ على الطريقة القوزاقية المتبعة فى مثل هذه الحفلات ، اى من حافة الوعاء الخشبى الكبير مباشرة . وسرعان ما انتشى بالخمر ، فنسى حرجه وارتباكه ، وشعر بالرغبة فى الاندماج مع بقية المدعوين ومبادلتهم الحديث والضحك .

وقال بلنسكى وهو يمسك بمعصم ماريانكا :
ـ هلمى يا ماريانكا .. لقد جاء دورك لتقدمى الينا الخمن والقبل !.

فتظاهرت ماريانكا بلكم بلنسكى على وجهه وهى تضحك قائلة :
ـ هذه هى قبلاتى .
وقالت احدى الفتيات بصوت كتغريد البلابل :
ـ ان «بابا» مسموح له بأخذ قبلة دون أن يدفع الثمن .
فامسك بها بلنسكى وقبلها رغما عنها وهو يقول :
ـ اذن لابدأ بك ايتها الحسناء الصغيرة .

ثم استدار الى ماريانكا واردف قائلا :
ـ هلمى يا ماريانكا .. قدمى كاسا لنزيلكم .
ثم امسك بيدها وقادها الى الأريكة التى جلس عليها اولنين ، وجعلها تجلس بجواره ، ثم ادار وجهها بيده نحو صديقه وقال له :

ـ الا ترى ؟ اليست رمزا للجمال ؟ .

واستجابت ماريانكا لتصرفات بلنسكى ، وراحت تنظر الى اولنين وهى تبتسم فى زهو وكبرياء .

وعاد بلنسكى يقول :

ـ انها الجمال الكامل .

وكانت نظرات ماريانكا تقول بوضوح :

ـ « نعم .. الا ترى الى اى حد انا جميلة ؟ » .

ودون ان يعرف ماذا هو فاعل ، القى اولنين ذراعيه حول ماريانكا وحاول ان يقبلها ، ولكنها تخلصت منه بسرعة ، واندفعت نحو الفرن وصدمت بلنسكى واسقطت الكأس من يده . وارتفعت الضحكات فى جوانب الغرفة ، وهمس بلنسكى شيئا فى آذان الفتيات .. فاندفعن معه الى باب الغرفة واغلقنه ووقفن معه خارجه ليمنعن ماريانكا من الخروج .

وسأل اولنين قائلا :

ـ عجبا ؟ لماذا تسمحين لبلنسكى بتقبيلك ولا تسمحين لى ! .

ـ اننى لا اريد هذا .. وهذا كل شىء .

ثم قطبت جبينها ورفعت رأسها واردفت قائلة :

ـ انه « بابا » لنا جميعا .

ثم اتجهت نحو الباب المغلق ، وراحت تدق عليه بقبضتيها وهى تهتف قائلة :

ـ لماذا تغلقن الباب ايتها الشيطانات ؟ .

وقال اولنين وهو يقترب منها :

ـ حسنا .. دعى الجميع خارج الغرفة .. ويكفى ان ابقى انا وانت فيها .. بمفردنا .

وقطبت مرة اخرى جبينها ، ودفعته بعيدا عنها بقوة ، ثم وقفت فى كبرياء وتحد مما جعل أولنين يسترد صوابه ويخجل من تصرفاته ويمضى الى الباب يدق عليه قائلا :

ـ بلنسكى .. افتح الباب ولنضع حدا لهذه الحماقات .

وفجأة أطلقت ماريانكا ضحكة عابثة وقالت :

ـ اذن فأنت خائف منى !.

ـ نعم .. انك حادة الطبع مثل والدتك .

ـ حسنا .. اسمع ما سأقوله لك .. استمر فى انفاق وقتك كله مع العجوز ايروشكا .. وبذلك سوف يزداد حب البنات لك يوما بعد يوم .

وكانت قد اقتربت بوجهها من وجهه ، وركزت نظراتها فى عينيه وهى تبتسم . ولم يدر هو ماذا يقول .

ولكنه تمتم متلعثما :

ـ ولنفرض اننى جئت ذات يوم لزيارتكم .. فهل ...

فطوحت برأسها وقالت :

ـ ان الأمر عندئذ سيختلف .

وفى تلك اللحظة فتح بلنسكى الباب ، فوثبت ماريانكا بعيدا عن أولنين الا انها احتكت به وهى تثب .

وقال أولنين لنفسه بسرعة :

« لقد كنت أوهم نفسى بكل هذا الحب بينها وبين ليوكا .. انه مجرد وهم لاأساس له .. وعلى من ثم ان انصرف كما ينبغى حتى لاتفلت السعادة من يدى » .

وبسرعة مفاجئة للجميع ، طوق ماريانكا بذراعيه وقبل جبينها ووجنتها ، ولم تتراجع هى ، ولم تقطب . وانما انفجرت ضاحكة

وأسرعت الى خارج الغرفة لتنضم الى الفتيات وبذلك انتهت السهرة .

* * *

قال اولنين لنفسه وهو فى طريق العودة الى مسكنه :

ـ نعم .. اذا لم اقبض بيد من حديد على زمام عواطفى ، فمن المحتمل ان اقع فى شرك الحب مع هذه العذراء القوزاقية الساحرة .

واوى الى فراشه وهذه الفكرة تراوده ، وكان يتوقع ان يتلاشى هذا الاحساس كله فى الصباح ، ومن ثم يستأنف حياته الهادئة الرتيبة كما كان يفعل من قبل . ولكن هذا لم يحدث . لقد تطورت علاقته بماريانكا ، وبدا كانه الجدار الذى طالما فصل بينهما قدانهار ، وأصبح اولنين قادرا على ان يتبادل معها عبارات التحية كلما التقى بها .

ولما اقبل والدها ليأخذ ايجار الكوخ ، وكان قد علم بثراء هذا النزيل المبسوط اليد ، أسرع ودعاه لزيارتهم . واستقبلته الأم العجوز فى عطف وترحاب . ومنذ ذلك الحين أخذ يزور الأسرة ويجلس مع أفرادها حتى ساعة متأخرة من الليل . وكانت حياته ـ ظاهريا ـ فى القرية لاتكاد تختلف عما كانت عليه من قبل ، أما فى الحقيقة ، أو فى أعماق نفسه ، فكان كل شىء قد اختلف الى حد بعيد . كان يقضى ساعات النهار كل يوم فى الغابة ، ثم يعود فى الثامنة الى مسكنه ، وبعد أن يغتسل ويفرغ من وجبة العشاء يمضى لزيارة أسرة ماريانكا ، بمفرده أحيانا .. واحيانا مع الصياد العجوز ايروشكا . وسرعان ما تعودت الأسرة زيارته هذه بحيث اذا تخلف ليلة ، سأل عنه الوالد ، أو الوالدة للاطمئنان عليه . وكان كريما مبسوط اليد فى معاملاته ، وكان فانيوشا يحضر اليه فى أثناء زيارته للأسرة ، الشاى ، وكان هو يجلس فى ركن الغرفة على حشية من الريش بجوار الفرن ، وكانت الأم العجوز تمضى فى عملها بلا إزعاج .. ومع الشاى ، أو النبيذ ، كانت الأحاديث تدور حول شئون القرية أو أخبار الجيران .. واحيانا كان اولنين يجيب عن أسئلتهم ويخبرهم بما يعرف عن الحياة فى روسيا وفى أحيان أخرى

كان يأتى معه بكتاب ويقرأ . وكانت ماريانكا ـ كالغزال البرى ـ تقبع فى ركن آخر ، أو فوق الفرن ، ولا تشترك فى الأحاديث .. ولكن أولنين كان يرى عينيها ووجهها ويسمع حركاتها وقرقرتها اللبق القرع العسلى ، ويشعر أنها تنصت اليه بكل كيانها كلما تحدث .. كما كان يحس بوجودها دائما كلما راح يقرأ كتابا لنفسه، وفى بعض الأحيان كان يخيل اليه أن نظراتها مركزة عليه ، فاذا التقت عيونهما سكن فى موضعه وركز نظراته عليها ، وعندئذ كانت تسرع وتشيح بوجهها فى ارتباك ، ويتظاهر بالاستغراق فى الحديث مع الأم العجوز وان كان فى الحقيقة مرهف السمع الى كل حركة تبدو من ماريانكا منتظرا أن تعيد النظر اليه لكى تتلاقى عيونهما المرة بعد الأخرى .. فاذا حضر زائرون آخرون ، فانها تخرج من عزلتها وتشترك فى الأحاديث والضحكات ، وتغدو ودودا طروبا . وكان أولنين يشعر بسعادة بالغة كلما رأى بريق الرضا يلمع فى عينيها حين تلتقى به فجأة فى فناء الكوخ أو فى القرية .

وكان هو لايريد منها شيئا ، ولا ينتظر أن ينال شيئا .. ولكن أحساسه بأهمية وجودها فى حياته كان يزداد يوما بعد يوم .

ومن ناحيته هو فقد غدا يشعر انه اندمج فى الحياة القوزاقية اندماجا جعل ماضيه يبدو غريبا عنه . واما عن المستقبل ، فانه لم يكن يهتم اطلاقا بأى مستقبل خارج حياته فى هذه القرية . ومن ثم كان يشعر بأشد الاستياء والاستنكار كلما قرأ رسائل أهله وأصدقائه اليه .. تلك الرسائل التى يبكونه فيها ويعتبرونه مفقودا أو ميتا ، هذا على حين كان يشعر فى قرارة نفسه أن هؤلاء الأقارب والأصدقاء هم المفقودون وهم الميتون ، لأنهم لاينعمون بهذه الحياة الزاخرة بالأمن والسلام ، التى يحياها فى القرية القوزاقية .

وكان واثقا تماما بأنه ليس نادما على قطع كل الوشائج التى تربطه بحياته القديمة . ذلك لأنه كان يستمتع بحياته العسكرية ، وبالصيد فى الغابة ، وبالحديث مع أيروشكا الصياد العجوز .. وبالقرب من ماريانكا ..

انه هنا يزداد مع كل يوم احساسا بالحرية وبالرجولة .. وقد تبين له ان القوزاق يختلفون تماما عما كان يظن أو يسمع . انهم ليسوا همجا أو متوحشين ، وليسوا اشرارا أو ابطالا .. وانما هم ـ كما عرفهم عن قرب ـ قوم يعيشون على الطبيعة ـ انهم يولدون ويموتون ، ويتزوجون وينجبون ، ويتحاربون ، ويأكلون ويشربون ، ويمرحون ويتبادلون الحب .. كل هذا دون أن يفرض عليهم من القيود أكثر مما هو مفروض على مظاهر الطبيعة .. على الشمس والقمر ، على العشب والظل ، على الزهرة والثمرة .. انهم لايخضعون الا لقوانين الطبيعة .. ولهذا فهم ـ اذا قارنهم بنفسه ـ أجمل وأقوى ، وأكثر حرية ، وان النظر اليهم ليجعل أولئين يشعر بالأسف على نفسه .. وكثيرا ما كان يخطر بباله أن يبيع كل ممتلكاته .. وينضم للجيش القوزاقى بصفة نهائية ويشترى كوخا جميلا ومزرعة كبيرة ، وقطيعا من الماشية ، ويتزوج بفتاة قوزاقية « لا تكون ماريانكا التى يحبها ليوكا » ثم يمضى كل يوم مع ايروشكا لصيد السمك أو الحيوانات والطيور البرية ، ويشترك مع القوزاقيين فى حملاتهم العسكرية .

وكثيرا ماكان يقول لنفسه :

ـ لماذا لاأفعل هذا ؟ ماذا أنتظر ، هل انا خائف من أن افعل الشيء الذى أراه معقولا وصوابا ؟ هل الرغبة فى ان أعيش ببساطة ـ مثل اى قوزاقى ـ فى حضن الطبيعة ، لا أوذى أحدا وانما أسدى الخير للجميع .. هل رغبة كهذه تعتبر عملا طائشا أو املا سخيفا مثل آمالى الصبيانية السابقة فى أن أكون وزيرا او قائدا عاما للجيش .

ومع هذا كان يسمع فى قرارة نفسه صوتا يهمس له بوجوب التريث فى اتخاذ مثل هذه الخطوة . وكان هذا الصوت نابعا من تفكيره فى انه لايستطيع أن يحيا كما يحيا ليوكا او ايروشكا .. لأن آراءه فى السعادة تختلف عن آرائهما .

كان رأيه فى السعادة انها لاتكتمل الا بانكار الذات والتضحية بالمصالح الشخصية والمآرب الذاتية من أجل الغير .. وان هديته التى قدمها لليوكا لكى يسهل له أمر الزواج من ماريانكا قد ملأت قلبه بالرضى والسعادة . وانه من ثم ليبحث عن الفرص التى تتيح له اسعاد الغير . ورغم لحظات الضعف التى كانت تغريه بأن يعيش كما يعيش ليوكا او الصياد ايروشكا ، الا انه كان دائما يحلق فى سماوات انكار الذات وينظر من مكانه الرفيع فى هدوء واطمئنان الى الناس والى ماينبغى ان يفعل من أجل اسعادهم !.

الفصل الثالث عشر

الى الطبيب

أقبل ليوكا راكبا جوادا لزيارة أولنين قبل موسم الحصاد بأيام قليلة وبعد أن تبادلا التحية بمودة واخاء .

قال له أولنين :

ـ متى سيتم زواجك ؟.

ولم يجب ليوكا فورا .. وانما قال مشيرا الى جواده :

ـ أترى هذا الجواد الجديد الذى استبدلته بجوادك .. أليس رائعا ؟.

وفحص الاثنان الجواد الجديد ، وكان رائعا فعلا .. ولم يستطع أولنين أن يملك نفسه من الاعجاب به .. قائلا انه لم ير فى حياته جوادا أحسن منه .

وربت ليوكا عنق الجواد وقال :

ـ وهو ذكى ايضا .. يتبعنى اينما سرت .. ولا يلحق به جواد آخر .

ـ هل دفعت مبلغا كبيرا فى سبيل الحصول عليه ؟.

وابتسم ليوكا قائلا :

ـ اننى لاادرى .. لقد جاملنى فيه صديق .

ـ انه جواد رائع فعلا .. مدهش ، بكم تبيعه ؟.

ـ لقد عرضت على مائة وخمسون روبلا ثمنا له . ولكننى على استعداد لأن أقدمه هدية خالصة لك .. اطلبه وانا اهبه لك .. ويمكنك أن تعطينى بدلا منه اى جواد عجوز عندك .

فهتف أولنين قائلا :

ـ لا .. لا .. اننى لاأقبل هذا بحق السماء .

فتناول ليوكا من حزامه خنجرا من طراز فاخر وقدمه الى أولنين قائلا :

ـ اذن ارجو على الاقل ان تقبل هذا الخنجر هدية منى .. لقد ظفرت به من الضفة الأخرى من النهر .. من بلاد التتر .

ـ شكرا جزيلا ياصديقى .

ـ وقد وعدت امى أن تقدم اليك كمية كبير من العنب عند الحصـــاد ..

ـ لاداعى لذلك .. لسوف تسوى كل شىء بيننا يوما .. ثم اننى لن أدفع لك ثمنا لهذا الخنجر .. اليس هذا ماتريد ؟.

ـ نعم . . نعم ، اننا صديقان حميمان ، تماما كما هو الشأن مع صديقى جيرى خان . لقد أخذنى الى بيته وطلب منى ان اختار اية هدية أريد وقد اخترت سيفا تتريا من النوع القصير .. الممتاز .

ودخل الاثنان الكوخ ليشربا بعض النبيذ .

وقال أولنين :

ـ هل ستمكث هنا طويلا ؟.

ـ لا .. لقد جئت لاودعك فقط . انهم سيقومون بحمـــلة عسكرية عبر نهر تيريك وسنمضى الليلة ، وسيكون صديقى نازار معى ..

ـ ولكن ماذا عن الزواج ! متى سيتم ؟.

فرد ليوكا فى غير اهتمام :

ـ لسوف احضر فى اجازة قصيرة لاتمام الخطبة . ثم اعود الى فرقتى ..

ـ ولكن .. ألن تذهب لزيارة فتاتك اليوم ؟.

ـ وما فائدة هـذا ؟ حسـنا ! عندما تقوم مع فرقتك بحملة عسكرية عبر النهر ، فلا تنس أن تسأل عن ليوكا .. ليوكا الشجاع وعندئذ سوف أصحبك الى رحـلات لصيد الخنازير البرية ، اننى اعرف مواطنها .

ـ حسنا ياليوكا .. وداعا ، وليكن الحظ معك .

واعتلى ليوكا ظهر جواده ، وانطلق فى الشارع دون ان يلقى نظرة على كوخ ماريانكا .. ولم يلبث أن انضم الى صديقه نازار الذى كان فى انتظاره .

وقال نازار وهو يومىء براسه الى كوخ يامكا ، صاحبة الحانة :

ـ هه ، مارأيك ؟.. هل ندخل ؟.

ـ آه .. لابأس .. خذ جوادى هذا اليها ، واذا لم أحضر بسرعة ؛ يمكنك أن تقـدم له بعض العشـب .. ولسـوف انضم الى الفرقة غدا صباحا .

ـ وماذا عن صاحبنا الروسى .. هل ظفرت منه بشىء جديد ؟.

ـ لا .. وقد نجوت لحسن الحظ بجوادى منه .. كان يريد أن ياخـذه .

ثم ترجل عن الجواد ، وسلم عنانه لنازار قائلا :

ـ اذهب به الى يامكا .. اما انا فسوف امضى اولا الى ماريانكا .

وتسلل ـ دون ان يراه احد ـ عائدا الى نافذة كوخ ماريانكا ، وهناك رآها فى الغـرفة الامامية واقفة امام المرآة تتزين استعدادا للنـوم ..

وهمس لها قائلا :

ـ ماريانكا .. اننى ليوكا .

واشرق وجه ماريانكا بالسعادة حين سمعت صوته ، وأسرعت الى النافذة ورفعت مصراعها ، وهمست قائلة فى خوف ولهفة :

ـ آه .. ماهذا ؟ ماذا تريد ياليوكا ؟

ـ اسمحى لى بالدخول لحظة واحدة .. اننى اكاد أموت شوقا اليك .. لم يعد فى مقدورى الصبر أكثر من هذا .

ثم جذب رأسها من النافذة وقبلها بحرارة قائلا فى همس :

ـ افتحى لى البابَ .. أرجوك .

ـ انك تضيع وقتك سدى .. منذ متى وانت تنتظر ؟

ولم يجب .. وانما استمر فى تقبيلها .. وكان يهمس فى لهفة :

ـ أترين ؟ اننى عاجز حتى عن عناقك بسبب ضيق هذه النافذة .

وعندئذ سمع الاثنان صوت الأم العجوز وهى تقول :

ـ ماريانكا ! مع من تتحدثين ياحبيبتى ؟

ورفع ليوكا قلنسوته التى قد تكشفه .. وقبع تحت النافذة فى سكون ، على حين همست له ماريانكا قائلة :

ـ انصرف .. بسرعة .

ثم رفعت صوتها وقالت لأمها :

ـ انه ليوكا يا أماه .. كان يريد أن يرى أبى .

ـ حسنا .. دعيه يدخل .

ـ لقد انصرف .. قال ان وقته ضيق .

ومضى ليوكا بعيدا ، وهو لايزال منحنيا ، واتجه نحو كوخ يامكا دون أن يراه أحد غير أولئين . وفى كوخ يامكا ، شرب مع نازار زجاجة أو اثنتين من النبيذ الأحمر قبل ان يخرجا من القرية . ومضى الاثنان فى طريقهما يرقرف عليهما الصمت ، وفجأة رفع ليوكا عقيرته بالغناء .. وبعد أن فرغ من الفقرة الأولى ، اتجه الى نازار وقال له :

ـ اتعرف ! لقد أبت ماريانكا أن تسمح لى بالدخول .

ـ أوه .. كنت أتوقع هذا . لقد قالت لى يامكا ان صاحبنا الروسى بدأ يزور أسرتها وان ايروشكا العجوز يشيع فى القرية

انه سيظفر من الروسى ببندقية جديدة عندما يساعده على الظفر بقلب ماريانكا .

فصاح ليوكا قائلا فى غضب :

ـ آه ، تبا لذلك الشيطان العجوز .. انها ليست فتاة من هذا النوع .. وعلى ذلك الروسى أن يحذر ، والا حطمت ضلوعه .

ثم انطلق يردد أغنيته المحبوبة :

« من قرية اسماعيلوف ..

« ومن بستان السيد المحبوب ..

« طار ذات يوم ـ بازى ـ خفيف الجناح ..

« ومن ورائه أسرع الصياد الشاب ..

« وراح يلوح للبازى الجميل بيده اليمنى .

« ولكن البازى الجميل أجاب قائلا :

« ان قفصك الذهبى لن يضمنى أبدا .

« وان يدك اليمنى لن تمسك بى أبدا .

« وانما أنا سأطير حرا الى البحر الأزرق .

« وهناك سأظفر ببجعة بيضاء .. بيضاء ..

« ومن لحم البجعة البيضاء ، سأملأ معدتى .

***

وأقيم الاحتفال بالخطبة فى بيت والد ماريانكا . وكان ليوكا قد حضر فى اجازة قصيرة الا انه لم يذهب لزيارة أولنين .. ولم يذهب أولنين ليشهد الاحتفال بخطبته على ماريانكا وذلك برغم أنه كان أحد المدعوين اليه .. كان يشعر بالحزن يعتصر قلبه .. ومن ثم أغلق باب الغرفة على نفسه ، وراح يكتب فى مفكرته :

« لقد فكرت فى أشياء كثيرة فى الآونة الأخيرة ، ولكننى برغم تفكيرى هذا لم أتزحزح عن ايمانى بأن الطريق الوحيد الى السعادة الحقة الكاملة هو أن يحب الانسان ، أن يحب ويحب منكرا ذاته .. أن يحب كل الناس .. وكل شىء .. أن يظلل بالحب كل الذين حوله .. وقد ظللت بالحب فانيوشا ، وايروشكا ، وليوكا ، وماريانكا

وما كاد يفرغ من عبـارته الأخيرة ، حتى اقبل عليه الصياد العجوز ايروشكا وهو فى حالة انتشاء ، حاملا معه آلة البلالايكا الموسيقية ، فلما راى اولنين مشغولا بالكتابة قال له هامسا كأن هناك روحا ترفرف على الغرفة :

ـ استمر فى الكتـابة ياولدى .. وسأجلس انا على الأرض بجانبك فى صمت ..

وامر اولنين تابعه فانيوشا باحضار بعض النبيذ الأحمر لايروشكا ، ولكن الصياد العجوز لم يكن راغبا فى الشرب بمفرده وانما كان ملهوفا الى التحدث مع شخص ما وهو فى هذه الحالة من النشوة .

وهمس قائلا :

ـ لقد ذهبت الى الحفلة .. ولكن جوها لم يعجبنى .. انهم خنازير جميعا ، ولهذا فضلت الحضور اليك .

وقال له اولنين وهو لايزال يكتب :

ـ من أين جئت بالبلالايكا ؟.

ـ كنت فى الضفة الأخرى من النهر ، وحصلت عليها من أحد هناك . اننى بارع فى العزف عليها .. ويمكننى ان اغنى عليها الأغانى القوزاقية أو التترية .. اغانى السادة او الرعاع .. استطيع أن اغنى عليها اية اغنية تريدها .

ورفع اولنين راسه وابتسم .. وشجعت ابتسامته الصياد العجوز ، وجعلته يقول :

ـ دعك من الكتابة الآن ياولدى .. اننى اعرف انهم جرحوا مشاعرك . وماذا يهم اضحك فى وجوههم وانس كل شىء .. ولكن لاجدوى من هذه الكتابة ..

وضحك اولنين ، وشاركه ايروشكا فى الضحك ، ثم وثب وتناول آلة البلالايكا ، وراح يردد عليها هذه الأغنية التترية :

« اننى وقعت فى الحب يوم الاثنين »

« وتعذبت طوال يوم الثلاثاء »

« وقدمت السؤال يوم الأربعاء »
« وانتظرت طوال يوم الخميس »
« وجاءت أجابتها يوم الجمعة »
« وضاع كل أمل لى »
« وقررت بكل عزم وقوة ..
« ان أنهى حياتى يوم السبت »
« ولكننى غيرت رأيى يوم الأحد »

***

واندفع ايروشكا فى الغناء ، وارتفع صوته عاليا ، ومضى الى الغناء الكبير ، وكان كوخ أسرة ماريانكا مضاء ، واصوات المحتفلين وضحكاتهم تنساب منه ، وكانت ثمة فتيات كثيرات يتحلقن فى الفناء الصغير الداخلى أو يدخلن الى مكان الاحتفال أو يخرجن منه .

وأطلق بعض القوزاق طلقات نارية فى الهواء احتفالا بالخطبة، واندفع بعضهم الى فناء كوخ أولنين وراحوا يرقصون رقصات قوزاقية عنيفة على غناء ايروشكا ونغمات البلالايكا .

وقال له أولنين :

ـ لماذا لم تذهب للحفلة .

فقال العجوز بصوت الانسان المتألم من شىء :

ـ دعك منهم .. دعك منهم .. اننى لم استرح اليهم . هلم ندخل الكوخ ونحتفل معا احتفالا خاصا .

وفى داخل الكوخ قال أولنين :

ـ كيف حال ليوكا ؟.. اهو سعيد ؟.. لماذا لم يأت لزيارتى ؟»

فدمدم الرجل العجوز قائلا :

ـ ليوكا ؟ اتعرف ماذا قالوا له ، قالوا اننى أحاول أن أقدم فتاتة لك . وكانما ليس فى القرية فتاة أجمل منها . وفى مقدورنا أن نحصل عليها اذا شئت .. ادفع مبلغا أكبر مما دفعه ليوكا وسوف يزوجها ابوها منك . ويمكننى أن أقوم لك بهذه الخدمة اذا شئت »

ـ لاياصديقى العزيز .. ان المال لايستطيع أن يفعل شيئا اذا لم تكن تحبنى .. دعنا من الحديث عن هذا الموضوع .

وانفجر العجوز أيروشكا ، فجأة بالبكاء وهو يقول :

ـ نعم .. نعم .. انك على حق .. انهم لايحبوننا نحن المساكين التعيسين .. لا أحد يحبنا .

وشرب أولنين فى تلك الليلة أكثر من المعتاد وهو ينصت الى أحاديث الصياد العجوز التى لاتنتهى . وكان بين الحين والآخر يقول لنفسه فى شىء من العزاء :

ـ يكفى أن يكون الحبيبان سعيدين .

ولكن الالم الخفى كان يعتصر قلبه .. وقد حاول جاهدا أن يخفف من الالم بالمزيد من شرب النبيذ الأحمر .. وكلما شعر بثقل رأسه قال لنفسه مواسيا :

ـ ان السعادة الحقة هى انكار الذات من أجل الغير .

وانتهز الصياد العجوز تلك الفرصة السانحة ، فراح يعب من الشراب بلا حساب .. وما لبث أن سقط فاقد الوعى على ارض الكوخ .

وحار فانيوشا فى أمره ، ولم يدر كيف يستطيع التخلص منه بمفرده ؛ لأن سيده أولنين لم يكن ، من جانبه ، فى حالة تسمح له بمعاونته . ومن ثم استدعى بعض الجنود ، وسحبوا الصياد العجوز الى خارج الكوخ ، وعبر فانيوشا عن استنكاره بالبصق على الأرض قبل أن يعود الى غرفته للنوم .

الفصل الرابع عشر

الحصاد

كان محصول الكروم فى ذلك العام وافرا ، ومن ثم كانت الفرحة تملأ قلوب سكان القرية وهم يجمعون الأعناب ، ويتبادلون الأحاديث ويملئون الجو ضحكا وغناء .

وفى ظهر ذات يوم كانت ماريانكا جالسة فى ظل شجرة خوخ ، تفك لفافة وجبة غداء الأسرة بعد أن تناولتها من المركبة . وأمامها وعلى مفرش من الجلد ، جلس والدها الذى أخذ اجازة من عمله .. يغسل يديه من ابريق نحاسى ، وشقيقها الأصغر الذى عاد من البحيرة الصغيرة بعد أن غسل فيها وجهه ، والأم العجوز وقد شمرت عن ذراعيها وراحت تأخذ من ماريانكا ألوان الطعام وترتبها على مائدة منخفضة مستديرة ، وكان الطعام مكونا من عناقيد العنب ، والسمك المجفف ، وبعض شرائح اللحم القديد والقشدة والخبز . وجفف الوالد يديه ، وجلس متربعا أمام المائدة ، وشرب الفلام من الابريق الى شراهة ، وتربعت الأم والابنة الى الجانب الآخر من المائدة .. وكان الجو حارا خانقا ، والهواء الساخن المندفع بين أعواد الكروم يزيده حرارة . وشرب الوالد بعض النبيذ من الابريق ، ثم قدمه الى الأم ، وبعدها الابنة ، ثم الابن ..

وقال الوالد فى لهجة تنم من الغبطة والرضا :

ـ ترى هل سنستطيع جمع المحصول من الكرمة التى وراء الظلة قبل هبوط الليل ؟.

فقالت زوجته :

ـ بمكننا اذا لم تسقط الأمطار .. وعلى كل حال فان آل ريمكين لم يجمعوا بعد نصف محصولهم واوستنكا تعمل بمفردها وتكاد تموت من فرط الارهاق .

ـ وماذا كنت تنتظرين غير هذا !.

وقالت الأم العجوز وهى تقدم ابريق النبيذ لابنتها :

ـ اشربى ياحبيبتى .. واسأل الله ان يرزقنا بتكاليف حفلة زواجك .

فقال الوالد وهو يقطب جبينه قليلا :

ـ لايزال فى الوقت متسع للتفكير فى هذا الأمر .

واطرقت ماريانكا براسها .. على حين قالت الأم فى اصرار :

ـ ولماذا لا نتحدث عنه الآن فقد تم كل شىء .. ولم يبق الا أن نفكر فى نفقات التنفيذ .

ـ لادا عى للتفكير فى المستقبل ، علينا اولا ان نفرغ من جمع المحصول .

وقالت الأم العجوز :

ـ هل رايت جواد ليوكا الجديد؟انه ليس الجواد الذى اهداه له نزيلنا .. وانما هو جواد آخر ..

فقال الوالد :

ـ لا .. لم اره بعد . ولكننى تحدثت اليوم مع فانيوشا التابع وعلمت منه ان سيده تلقى الف روبل مرة اخرى .

فاومأت المرأة العجوز براسها قائلة :

ـ انه مصنوع من المال .. لاشك فى ذلك .

وكانت الاسرة كلها تشعر بالسعادة والرضا ، اذ كان العمل يجرى باطراد وكان المحصول وافرا والعنب من صنف ممتاز .

وبعد الفراغ من طعام الغداء ، وضعت ماريانكا كمية من العشب أمام الثيران ثم استلقت فى ظل المركبة ، ونامت لتستريح فى فترة القيلولة ولكنها لم تستغرق فى النوم فورا ؛ وانما راحت تفكر فى ليوكا ، وفى يوم الزفاف ، ودهشت حين وجدت نفسها لا تتعجل هذا اليوم .. ولم تلبث ان ادركت السر فى هذا .. ادركت انها سعيدة باهتمام أولنين بها .. سعيدة بنظراته التى تنم عن حبه الكبير لها ..

فلماذا تتعجل الزواج من ليوكا !!.

***

وقبل ان تستغرق فى النوم ، أقبلت صديقتها أوستنكا اليها ورقدت بجوارها فى ظل المركبة ، ثم اذا هى تعانقها وتضحك قائلة:

ـ ماريانكا .. اتعرفين لماذا جئت اليك ؟.

فاعتمدت ماريانكا على مرفقها ورفعت رأسها قليلا وقالت :

ـ لا .. لماذا ؟!.

ـ اننى اعرف شيئا عن نزيلكم أولنين .

ـ وماذا تعرفين ؟.

ـ هل يأتى لزيارتك ؟.

ـ وماذا لو انه يأتى ؟.

ـ اوه .. لا تغضبى منى يا ماريانكا . اننى فتاة بسيطة وصريحة ولا أوذى أحدا . لهذا أقول اننى احبه .. احبه .

ـ من ؟ بابا بلنسكى !.

ـ نعم .. طبعا .

ـ ولكن هذه خطيئة يا أوستنكا .

ـ لا يا ماريانكا .. ان هذه هى الفرصة الوحيدة للاستمتاع بحياتى قبل الزواج . لأننى بعد الزواج سأكون مشغوله بالزواج والأولاد وأعباء البيت . انظرى الى نفسك انك تنتظرين الزواج من ليوكا دون أن تستمتعى بحياتك ..

فقالت ماريانكا :

ـ ان هناك نساء كثيرات يجدن السعادة الحقة فى الزواج .

ـ ارجوك أن تصارحينا يا ماريانكا .. ماذا حدث بينك وبين ليوكا .

ـ لم يحدث بينى وبينه شيء . لقد تقدم لخطبتى ، وأرجأ أبى الموافقة لمدة عام وأخيرا تمت الخطبة ، وسوف يتم الزواج فى الخريف القادم .

ـ ولكن ماذا قال لك ؟.

فابتسمت ماريانكا وقالت :

ـ وماذا يمكن أن يقول لى ! قال أنه يحبنى ، وظل يلح على لكى أذهب معه الى بستان الكروم .

ـ آه .. ذلك الخبيث ! وهل ذهبت معه ؟ انه شاب ممتاز على كل حال . وهو شجاع وجرىء ، ويقولون انه يستمتع بحياته فى الجيش ، ولكن المعروف انه يحبك أشد الحب .. وماذا أيضا .. ماذا قال لك أيضا ؟.

فضحكت ماريانكا وقالت :

ـ لا شيء أكثر مما تعرفين . ولكنه جاء ذات ليلة الى نافذة غرفتى وكان مخمورا ، وطلب منى أن أسمح له بالدخول .

ـ وهل سمحت له ؟.

ـ لا طبعا . اننى حين أقرر شيئا لا أتراجع عنه .

ـ ولكنه شاب رائع .. وأية فتاة ترحب بطلبه .

فردت ماريانكا قائلة بكبرياء :

ـ اذن ليذهب الى هذه الفتاة ..

ـ ألا تشعرين بالأسف من أجله ؟.

ـ بلى أشعر .. ولكننى لاأحب أن اترك أحدا يعبث بعواطفى . الا ترين هذا .

فأخفت أستنكا وجهها فى صدر ماريانكا ، وقالت هامسة :

ـ انك فتاة باردة العواطف .. انك لاتريدين أن تشـــعرى بالسعادة .

ثم أردفت قائلة وهى « تدغدها » وتضحك :

ـ ولكنك فتاة سعيدة الحظ ، ان جميع الشبان يهيمـون بك حبا ، ولكنك لا تهتمين بأحد منهم . ولو كنت فى مكانك ، للعبت بعواطف ذلك الروسى الثرى .. أولنين .. انه يحبك ويكاد يأكلك بنظراته . لو أنك ترين الهدايا الجميلة التى يقدمها بابا بلنســكى الى ؟! ان أولنين اوفر ثراء منه . ويقال انه أغنى رجل فى روسيا وان تابعه فانيوشا يقول ان لديه مئات من عبيد الأرض .

وانتصبت ماريانكا قائلة :

ـ اتعرفين ماذا قال لى يوما ؟ اننى أتمنى لو كنت خطيبك ليوكا أو اخاك لازونكا .. فماذا كان يعنى بقوله هذا ؟.

ـ أوه .. انه يقول اى شىء يخطر بباله ، تعالى واســمعى ما يقوله لى بابا بلنسكى .

وعادت ماريانكا ورقدت لتنام وهى تقول :

ـ لقد طلب أن يأتى ويساعدنا فى جمع المحصول . وقد رحب أبى به .. وسوف يأتى اليوم .

***

سقطت أشعة الشمس عند ميلهـا فى ســمت الأصــيل ، على وجهى أوستنكا وماريانكا الراقدتين فى ظل المركبة . ولما استيقظت الفتاتان ، وراحت ماريانكا تنظر حولها رأت عند شــجرة الكوخ نزيلهم أولنين واقفا يتحدث الى أبيها والبندقية على كتفه ولـكزت أوستنكا فى جانبها وأشارت اليه باسمة دون أن تقول شيئا .

وكان أولنين يقول وهو ينظر حوله فى لهفة دون ان يرى ماريانكا بسبب تكاثف أعواد النبات :

ـ لقد ذهبت أمس ولكننى لم أر واحدا منها .

ـ أوه .. لاشك أنك لم تذهب الى المكان الذى وصفته لك ؛ لأن هذا المكان مملوء بالأرانب البرية .

وفجأة قالت الأم العجوز ضاحكة :

ـ ولكن .. أيليق أن تجرى لصيد الارانب دون أن تأتى لمساعدة البنات فى جمع المحصول ..!

ثم ردفت بصوت مرتفع تقول :

ـ هلم يا بنات الى العمل ..

وكانت ماريانكا وأوستنكا تتهامسان بجوار المركبة وتضحكان بصوت خافت حتى لا يعرف أولنين مكانهما . وكان الوالد يتودد الى الروسى الشاب منذ عرف بأمر الهدية التى قدمها الى ليوكا .. اى الجواد الذى يبلغ ثمنه أربعين روبلا .. وكان يزداد سرورا كلما راى وشائج المودة تزداد بين الشاب الروسى الثرى وبين ابنته ماريانكا .

وقال اولنين وقد لمح ثوب ماريانكا الأزرق ومنديلها الأحمر :

ـ ولكننى لا أعرف كيف أقوم بالعمل معكم .

وقالت الأم العجوز :

ـ تعال لأقدم لك بعض الخوخ .

وقال الوالد :

ـ دعك من هذه المرأة الحمقاء . انها تريد أن ترحب بك على الطريقة القوزاقية ولكنكم فى روسيا تقدمون لضيوفكم مربى الكمثرى وما الى هذا من الحلوى المطهوة .

ـ لا .. لا شكرا . اننى أفضل ان اعمل معكم أولا فى جمع العنب .

وبدا اولنين يعمل ، وانتهز أول فرصة انفرد فيها بماريانكا وقال لها وهو يحاول السيطرة على نبرات صوته :

ـ ان هذا العنقود لا يزال اخضر وان كان يزن أكثر من ثلاثة ارطال .

ـ ولكننا نقطعه ..

ـ ولكن من أين .. هل من هذا الطرف ؟.

واخذت ماريانكا تعلمه كيف يقطع العنقود الكبير وتلامست أيديهما ، ونظرت اليه باسمة ، وقال لها :

ـ متى سيتم الزواج ؟.

فنظرت اليه فى شىء من الحزن ، ثم اشاحت بوجهها دون أن تجيب .

وعاد هو يقول :

ـ هل تحبين ليوكا .

ـ وما شأنك بهذا ؟.

ـ اننى احسده .

ـ احقا ؟.

ـ نعم .. انك جميلة جدا ..

وامسك بيديها فجأة وقد اضطرم وجهه وخفق قلبه بشدة وركز نظراته عليها اما هى فقد قالت بهدوء :

ـ أيا كان الأمر ، فاننى لست من نصيبك .

ثم أردفت قائلة بعد برهة صمت :

ـ فلماذا تسخر منى !.

ولكن عينيها كانتا تقولان بوضوح انها تعتقد تماما انه لا يسخر منها ، وانما هو جاد فى حبه لها .

وقال هو باضطراب :

ـ أسخر منك !؟.

ثم تنهد بعمق واستطرد قائلا :

ـ آه .. لو انك تعلمين ..

وشعر أن عبارته هذه سطحية ولا تتفق مع حقيقة شعوره ، ومن ثم عاد يقول بحرارة :

ـ اننى على استعداد لأن افعل من أجلك أى شىء .

ـ اوه .. دع يدى أيها الشاب الماكر .

ولكنها باضطرام وجهها ، وتألق عينيها ، وخفقان صدرها الجميل ، كانت تقول له شيئا آخر . وأحس أولنين أنها كانت منذ مدة طويلة تعرف ماذا يريد ان يقول لها ، ولكنها كانت تهفو لأن تسمع منه كيف يمكنه الاعراب عن عواطفه نحوها .

وقبل أن يقول لها شيئا ، اذا بأوستنكا تقول ضاحكة وهي واقفة عند كرمة قريبة :

ـ انت .. هناك .. أولنين .. تعال وساعدني .. اننى اعمل بمفردى منذ الصباح.

ولكن أولنين لم يرد ولم يتحرك من مكانه.

وعادت ماريانكا الى عملها فى جمع عناقيد العنب . وكانت بين الحين والآخر ترفع وجهها الى أولنين وتبتسم . وأراد هو أن يقول شيئا ، ولكنه هز رأسه وقرر أن يلتزم الصمت .

ولما أوشكت الشمس أن تغيب ، حمل بندقيته على كتفه ، واستدار خارجا بسرعة من الكرمة ، وضحكات أوستنكا وماريانكا ترن فى أذنيه .

الفصل الخامس عشر

عذابات الحب

أمضى أولنين فترة الغروب فى الغابة محاولا اصطياد شىء ، ولكنه لم يوفق ، وحين عاد الى مسكنه ، رأى ماريانكا فى الفناء وهى تقوم بأعمالها المعتادة قبل أن تدخل كوخ الأسرة لتناول العشاء، ومضى هو الى كوخه ، وجلس يفكر فيما ينبغى أن يفعل . وأخيرا تناول عشاءه ، وترك فانيوشا ليمضى الى فراشه ، ثم جلس فى الشرفة غارقا فى تأملاته بعد أن هدأت الحركة فى القرية . وكان بين الحين والآخر يسأل نفسه :

ـ ماذا اريد ؟ وماذا ينبغى أن أفعل .

وكلما سمع وقع خطوات خفيفة فى الفناء ، أسرع وأطل برأسه وكان يرى فى كل مرة طرفا من ثوب ماريانكا وهى تسرع بالعودة الى الكوخ. وكان قد عرف ـ بالسمع ـ أن والديها قد فرغا من العشاء ، ومن تبادل الأحاديث ، وأنهما أويا الى فراشهما .

واستجمع شجاعته فى النهاية ، وسار على اطراف أصابعه ، وفتح باب كوخ أسرة ماريانكا ، واختلس نظرة الى الداخل ، ولما رأى أن ماريانكا لا تزال مستيقظة ، أسرع متراجعا ، وعندئذ سمع صوت رجل قوزاقى يقول وهو فى الفناء :

ـ ما هذا .. ماذا يجرى هنا ؟.

ثم رأى نازار يتقدم نحوه ويردف قائلا :

ـ شيء جميل جدا .. لقد رأيتك بنفسي هذه المرة ، ولسوف أبلغ الأمر الى شيخ القرية .

وتسمر أولنين في مكانه عاجزا عن الرد . وعاد نازار يقول :

ـ وساخبر والدها أيضا ! كيف تسمح هذه الفتاة بتسللك الى كوخها . ألا يكفيها خطيب واحد ؟.

واستطاع اولنين ان يقول في النهاية :

ـ ماذا تريد مني ؟ والى اى شيء تهدف ؟.

ـ لا شيء .. ولكنني ساخبر القرية كلها بما رأيت .

وكان نازار يتحدث بصوت مرتفع عن عمد ، مما جعل أولنين يرتعد ويقول له وهو يمسك بذراعه ويجذبه نحو الكوخ :

ـ تعال معي هنا .. انك تعرف انه لم يحدث شيء .. انها أبت أن تسمح لي بالدخول . وانا لم أكن أقصد شيئا . انها فتاة شريفة .

فرد نازار ساخرا :

ـ سوف نرى هذا .

ـ ولكنني سأعطيك مبلغا من المال على كل حال . انتظرني هنا .

واسرع أولنين الى كوخه ، ولم يلبث أن عاد ومعه عشرة روبلات قدمها لنازار وهو يقول :

ـ لا شيء حدث على الاطلاق . وانت تعرف هذا . ولكنني أخطأت التصرف على كل حال ، واني أقدم اليك هذا المبلغ حتى لا تخبر احدا بما رأيت .

وضحك نازار وقال وهو ينصرف بعد أن دس المبلغ في جيبه :

ـ حسنا جدا .

وكان نازار قد عاد الى القرية في تلك الليلة ليقوم بمهمة من أجل ليوكا ، أو على الأصح ، ليبحث عن مكان يخفي فيه جوادا مسروقا . وفيما هو يمر بالشارع رأى أولنين في أثناء محاولته فتح باب كوخ ماريانكا . وفي اليوم التالي راح يزهو أمام صديقه ليوكا بما فعل ، وبما ظفر به من مال أولنين .

***

وفي ذات ليلة ، جلس أولنين مسهدا غارقا في أفكاره وهمومه ، ومن ثم لجأ الى مفكرته يكتب فيها خواطره واحساساته وظل مشغولا بالكتابة حتى أوشك الفجر أن ينبلج . وقد اختتم مذكراته في تلك الليلة بهذه العبارات :

« ان انكار الذات مبدأ عقيم لا جدوى منه .. انه لون من الكبرياء ، وملاذ من الاحساس بالشقاء ، وتخلص من الغيرة التي تملأ النفس من سعادة الآخرين ، اذ كيف يعيش الانسان لغيره ويعمل صالحا وهو معذب بحب فتاة ما ، ممتلىء النفس بالرغبة في الحياة معها ؟ انني الآن لا أريد السعادة لغيري ولا لليوكا ، انني أريدها أولا لنفسي ، انني أحبها وأتعذب بحبها ، ومن العار أن اتركها لانسان غيري اذا كان في مقدوري أن اظفر بها ، واذا كانت هي تبادلني الحب فعلا .. ان الحب أقوى من كل شيء .. وان الانسان وهو على قيد الحياة لابد أن يسعى الى السعادة بقدر ما يستطيع . ومن ثم سأذهب اليها وأصارحها بكل شيء .

***

وذهب اليها في مساء اليوم التالي .. كانت جالسة على الفرن عارية الراس تخيط ثوبا حريريا على ضوء سراج . وكانت أمها جالسة على متكأ بجوار الفرن تغزل خيوط الحرير من شرانق ديدان الحرير ، ولما رأته ماريانكا ، وثبت من فوق الفرن وأسرعت تعصب راسها بمنديلها ، ثم حاولت العودة الى ظهر الفرن عندما نالت لها أمها :

ـ ماذا بك .. ابقي معنا هنا

ـ لا .. لا أستطيع يا أماه .

ولم يستطع أولنين في جلسته أن يرى غير جزء صغير من جسمها وراح يتبادل الحديث مع الام العجوز التي رحبت به أجمل ترحيب ، وقدمت له الزبيب وفطائر العنب وبعض النبيذ الجيد ، واخذت تحثه على الطعام والشراب . وكانت المرأة العجوز تبدو

لأولنين على جانب كبير من الرقة والحنان بعد أن تغلب على صدمة لقائها الأول له .

وقالت فى معرض الحديث :

ـ اننا نحمد الله .. فكل شىء ميسور لنا .. لدينا حاجتنا من الطعام والشراب ويفيض عندنا من النبيذ هذا العام نحو ثلاثة أو أربعة براميل يمكن بيعها وانفاق ثمنها فى حفلة زواج ماريانكا .. ونرجو أن تشترك معنا فى مباهج هذه الحفلة .

وخفق قلب أولنين بعنف وقال والدماء تلهب وجهه :

ـ ومتى ستكون هذه الحفلة ؟.

ـ ربما فى الأسبوع القادم . اننا مستعدون لكل شىء .. ونرجو أن يستقر ليوكا بعد الزواج ويستقيم حاله . لقد سمعنا انه يقوم باغارات على هضاب نوجاى ولاشك أن هذا سيعرضه للمخاطر .

ـ نرجو ألا يقع فى قبضة التتر . والواقع اننى رأيته فى القرية يسرف فى شرب الخمر ، كما سمعت أنه باع مرة اخرى جوادا مسروقا من هضاب نوجاى .

وشعر أولنين بالخجل حين رأى ماريانكا تنظر اليه بغضب وتقول بصوت كله التحدى :

ـ وماذا فى هذا ؟ ان ليوكا يشرب كفيره من الشبان ، وهو يدفع ثمن شرابه من ماله . ولا تنس أنه لا يتسبب فى ايذاء أحد .

ثم وثبت عن ظهر الفرن ، وغادرت الغرفة وأغلقت الباب وراءها بعنف وشيعها أولنين بنظراته ، وقد سره أنه اثار فى نفسها الانفعال .

***

ووجدها فى مساء اليوم التالى بمفردها فى الكوخ تستعد للنوم ، وكانت أمها مشغولة فى حظيرة المواشى ، فقال لها فى صوت ملهوف :

ـ ماريانكا .. الا ترحمينني ؟ انني لا أستطيع أن أعرب لك عن مبلغ حبي .

فتراجعت عنه قليلا وتمتمت قائلة :

ـ دعك من هذه الأحاديث الرخيصة . وتأكد انك لن تستطيع أن تنال مني شيئا .

ـ انني جاد فيما اقول .. لا تتزوجي ليوكا . لسوف اتزوجك انا .

« وقال لنفسه : ويحي .. ماذا اقول ؟ هل يمكنني أن أقول هذا غدا وبعد غد ؟! نعم .. نعم .. انني واثق من اني احبها واتمنى الزواج بها » .

وقالت هي في دهشة ولهفة وقد زايلها الخوف :

ـ اتريد أن تتزوجني حقا ؟!.

ـ نعم يا ماريانكا .. انني اهيم بك غراما واكاد افقد عقلي .. انني سأفعل كل ما تأمرينني به .

ولم تبتعد عنه هذه المرة ، وانما مدت يديها ، واخذت بينهما يده الرقيقة الممتدة اليها ، وهمست قائلة بصوت حالم :

ـ لا تكن احمقا يا عزيزي .. هل سمع أحد من قبل أن سيدا عظيما مثلك تزوج فتاة قوزاقية فقيرة ؟ .

ـ ماريانكا .. انني احبك ، وهذا يكفي .. وسوف احقق لك ..

ثم بسط ذراعيه ليطوقها ، ولكنها تخلصت منه وانفلتت كالغزال الشارد وهي تضحك .

وعاد الى كوخه في تلك الليلة ، واستغرق في نوم عميق وقد امتلأ قلبه رضا عن نفسه وعن الحياة .

الفصل السادس عشر

ليلة المهرجان

كانت القرية تحتفل بمهرجان الحصاد فى الميدان الكبير الذى يتوسطها وكان الشبان والفتيات يرقصون ويغنون بملابسهم الوطنية ويتبادلون ألوان الحلوى ، ويشربون النبيذ الأحمر ، وكانت أوستنكا تستضيف فى كوخها المطل على الساحة صديقها بلنسكى وصاحبه أولنين . وكان ليوكا وصديقه نازار قد عادا الى القرية ليشتركا فى الاحتفال ، وكان ليوكا أكثر الشبان رقصا وغناء . ولما رأى أولنين فى نافذة كوخ اوستنكا ، أومأ له برأسه ، وقال له :

ـ هلم يا ديمترى واشترك معنا فى الاحتفال .

فقال له أولنين بشىء من الجفاء :

ـ سوف أحاول .

وهمس بلنسكى شيئا فى أذن أوستنكا . وسرعان ما أسرعت الى الساحة ثم عادت ومعها ماريانكا التى وقفت خارج النافذة تبتسم لأولنين . فقال هذا لها :

ـ أدخلى يا ماريانكا .. أرجوك .. اننى أريد أن اتحدث اليك فى أمر مهم .

فاقتربت منه وقالت :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟ .

ـ اريد أن اسمع منك الاجابة عن سؤالى .

ـ اى سؤال تقصد ؟ .

فهمس فى اذنها قائلا :

ـ السؤال الذى وجهته اليك منذ أيام .. هل تتزوجيننى يا ماريانكا ؟ .

ففكرت ماريانكا برهة ثم قالت :

ـ سوف أخبرك الليلة .. .

ثم ألقت عليه نظرة حانية ، وأسرعت للاشتراك فى الغناء الرقص .

***

وأسرف ليوكا فى الشرب ، وراح يراقص البنات الواحدة بعد الأخرى ولما حاول أن يعانق أوستنكا ، نفر منه وقالت بصوت غاضب :

ـ اننى عائدة الى البيت .. وسوف تأتى ماريانكا معى .

ولكن ليوكا طوق ماريانكا بذراعه ، وهمس لها قائلا :

ـ لا يا ماريانكا .. لا تذهبى معها الآن .. اننى أريد أن أستمتع بهذه الليلة معك .. عودى الى بيتك وسوف ألحق بك .

ـ لا .. اننى أريد أن أستمتع بالاحتفال .. ولسوف اذهب مع أوستنكا الى مسكنها .

ـ حسنا .. ولكننى سوف أتزوجك على كل حال .

فانفلتت ماريانكا منه وقالت فى تحد :

ـ سوف نرى .

فنظر اليها برهة وقد قطب جبينه ، ثم قال فجأة :

ـ ماذا تعنين ؟ اذن فان ما سمعته هو الحقيقة ؟ حسنا .. ان موقفك هذا لن ينتهى الى خير .

وشعرت ماريانكا بالخوف وتمتمت قائلة :

ـ ماذا تعنى يا ليوكا ..

ـ اعنى علاقتك بذلك النزيل الروسى !..

فهتفت قائلة فى غضب :

ـ وما شأنك انت ؟ انك لست أبى أو امى . وانا حرة فى علاقتى مع الغير .

ـ اذن تذكرى كلماتى هذه .

ثم استدار وصاح مطالبا الفتيات والشبان بالمزيد من الغناء والرقص .

***

وقف اولئين بالقرب من مسكنه فى الظلام . فلما رأى ماريانكا تقترب ، أسرع اليها وطوقها بذراعه وقبلها قائلا :

ـ ماريانكا .. حبيبتى !..

وهمست :

ـ يكفى هذا الآن .. وعليك قبل أن تقبلنى ، أن تتزوجنى اولا ..

ـ لسوف اذهب الى ابيك غدا واخطبك منه .. ولكن يجب أن تكتمى الامر حتى تتم الخطبة .

ـ اننى لن أخبر أحدا بشىء .

ـ هل تتزوجيننى يا ماريانكا ؟..

ـ نعم ..

ـ ولكن .. هل تحبيننى ، هذا هو المهم .. اناشدك الله أن تصدقينى القول .

فضحكت وقالت وهى تضغط على يديه بيديها :

ـ ولماذا لا احبك ؟ انك شاب ممتاز كريم .. وان يديك لناعمتان كالزبد .

ـ ماريانكا .. اننى جاد فى سؤالى .. هل تتزوجيننى ؟..

ـ نعم .. اذا وافق أبي .

ـ ارجوك . لسوف اجن اذا عرفت انك تخدعينني .. لسوف اتحدث غدا مع والديك واطلب يدك منهما .

فلما ضحكت ، قال :

ـ لماذا تضحكين !.

ـ لا شيء .. ان الأمر طريف .

ـ ولكنني جاد .. لسوف اشترى مزرعة كروم وبيتا واتضم رسميا للجيش القوزاقي .

ـ المهم ان تخلص لي ولا تجري وراء نساء غيري . انني لا احتمل هذا ..

ولهث اولنين من فرط السعادة ومن الالم في وقت واحد .. السعادة وهو ينصت الى كلمات ماريانكا التي تنم عن مدى حبها له ، والالم لانه يراها واقفة تتحدث اليه في هذا الامر الخطير بهدوء تام ، وكأنما الحديث يدور حول شيء آخر لا أهمية له .

وعاد الى مسكنه وهو يقول لنفسه :

ـ ان الحياة ستمتد أمامنا ، وسيفهم كل منا الآخر على مر الأيام .. وان حبي لها لا يمكن التعبير عنه بالكلام .. ولسوف أخبر والديها غدا .. واخبر بلنسكي واخبر القرية كلها ..

وفي خلال هذا ، كان ليوكا قد اسرف في شرب النبيذ حتى فقد الوعي فقضى ليلته في حانة بامكا .

***

واستيقظ اولنين في بكور اليوم التالي مستبشرا ، ممتلىء النفس بالآمال التي كان يرجو أن تتحقق في هذا اليوم .. ووثب من فراشه ليستعد للذهاب الى والديها ، ويظفر منهما بالموافقة على طلب يدها . ولم تكن الشمس قد اشرقت بعد حين سمع ضجة في الشارع ووقع الاقدام مقرونا «بدقدقة» حوافر الجياد ، ومن ثم اسرع الى مصدر الضجة بعد أن ارتدى سترته العسكرية فرأى

لخمسة من الفرسان القوزاق يمرون فى الشارع وهم يتبادلون الحديث بأصوات مرتفعة وكان ليوكا يتقدمهم بكتفيه العريضتين فوق جواده الرائع . وكان أحدهم يقول :

ـ لنمض الى المخفر الأمامى .

وقال آخر :

ـ كن على حذر .. انك لم تسرج جوادك كما ينبغى .

وصاح ليوكا بوجه متوهج :

ـ هلم الى البوابة الجنوبية .. انها تؤدى الى اقرب طريق .

وصاح أولنين قائلا :

ـ ماذا حدث ؟ الى اين انتم ذاهبون ؟ .

ـ اننا مسرعون الى عصابة من التتر فى الكثبان الرملية على هذه الضفة ان عددنا قليل ، ولكننا لا نستطيع الانتظار أكثر من هذا .

وأدرك أولنين أن تخلفه عن الاشتراك معهم فى هذه الحملة سيكون مثار الحديث فى القرية ، ومن ثم بادر الى بندقيته فحملها والى جواده فأسرجه بمساعدة فانيوشا ، واستطاع ، هو وتابعه الشاب ، ان يلحقا بالفرسان الخمسة عند بوابة المدينة،وان ينضما اليهم .

وبعد مسيرة نصف ساعة ، لحق بهما اثنان آخران ، كان أحدهما مدرسا شابا بالمدرسة العسكرية ، وكان فى زيارة للقرية ، ومن ثم عهد اليه بقيادة الحملة ، ولكن القائد الفعلى لها كان ليوكا ، أما أولنين فان أحدا لم يحفل به ، أو يهتم بأمره .

ورأى أولنين أن يتقرب من المدرس العسكرى الشاب ليعلم منه ماذا حدث وكان المدرس لطيفا ، فقال لأولنين ان طابورا من جنود المخفر كان يقوم بجولة تفتيشية حين لمح عددا من رجال التتر الجبليين فى الكثبان الرملية على بعد نحو ستة أميال . وأطلق التتر النيران على الطابور العسكرى قائلين انهم لن يستسلموا حتى

الموت . ولما كان الطابور لا يزيد على ثلاثة جنود وجاويش ؛ فقد تراجع افراده . وارسل الجاويش احد الجنود طالبا النجدة .

واشرقت الشمس ، وبدت تلال الرمال واضحة فى كل اتجاه ، وصار افراد الحملة فى صمت وعيونهم لا تغفل عن شىء ، وكان ليوكا يمضى فى المقدمة على جواده الرائع ، مرفوع الراس ، متوهج الوجه ، حاد النظرات ، وكان اولنين يختلس النظر اليه بين الحين والآخر فى اعجاب مقرون بالحسد والغيرة ، وكان فى الوقت نفسه قد قرر حين راى القوزاقيين يتجنبونه ، الا يشترك فى المعركة ، ولاسيما بعد ان اثبت شجاعته فى معارك سابقة نال عليها بعض الأوسمة ، ولكن السبب الرئيسى لرغبته فى عدم الاشتراك هو الشعور بالسعادة الغامرة ، وقد عز عليه أن تطفىء المعركة هذا الشعور .

وفجاة دوى طلق نارى من بعيد ، وتحمس المدرس الشاب واهتاجت مشاعره ، ولكن افراد الحملة القوزاقية لم يطرفوا بعيونهم ، ولم تهتز فى ايدانهم شعرة ، وانما ظلوا منطلقين بسرعة وراء ليوكا الذى كان يندفع نحو مخبأ التتر بوجه كله عزم واصرار .

وفجاة اوقف ليوكا جواده وقال :

ـ ارى شخصا ما على جواد من بعيد .

ومد اولنين بصره فى كل اتجاه . ولكنه لم ير شيئا . ولكن القوزاقيين لم يلبثوا أن راوا ثلاثة رجال على جيادهم . فقال لهم اولنين :

ـ اهؤلاء هم التتر .

ولم يجب عليه احد الجنود ، وكأنما ارادوا بصمتهم أن يبينوا له مدى حماقته فى توجيه سؤال كهذا ، و كأنما ارادوا أن يقولوا له : هل يعقل ان يظهر التتر انفسهم بهذا الشكل !.

وقال ليوكا وهو يشير الى احد الجنود الثلاثة المسرعين نحوهم :

ـ هاهو ذا الزميل رودكا يلوح لنا بيديه .. ترى ماذا حدث !.

وبعد لحظات اقبل الجنود الثلاثة ، وكان من بينهم الجاويش جيورجى . وانضموا لبقية الحملة .

وسأل ليوكا الجاويش جوركا قائلا :
ـ على أية مسافة يكمن التتر ؟.
فأشار الى تل رملي وقال :
ـ انهم على مرمى البنادق من هذا التل . وقد تركت أحد جنودي ليمنعهم من الزحف .

وترجل الجميع عن الجياد ، ومضوا الى التل الرملي حيث كان أحد الجنود يتبادل مع التتر اطلاق النار . ومرت رصاصة بجوار أولنين ، فجفل وتراجع مما جعل ليوكا يقول له ساخرا :

ـ ابتعد أنت عن هذا المكان .. انه شديد الخطر عليك .

ولكن أولنين أصر على أن يرى هؤلاء التتر المغيرين المصرين على الانتصار أو الموت .

وأطل برأسه من فوق حافة المرتفع ، ولم يلبث أن لمح على مسافة بعيدة ، نتوءا من الرمال تبدو وراءه قلنسوات التتر وفوهات بنادقهم . وكان عددهم لايزيد على تسعة رجال أشداء .

وقال ليوكا :

ـ يجب أن نحضر عربة تبن وندفعها أمامنا ونلوذ بها في أثناء تقدمنا نحوهم ، والا فانهم سيصيدوننا الواحد بعد الآخر .

ثم أشار الى مرتفع رملي قريب وقال :

ـ توجد في هذا المرتفع عربة تبن وضعت لهذه الأغراض .. هلم نأت بها ..

وسرعان ما كان جنود الحملة يدفعون بعربة التبن أمامهم مستترين وراءها في تقدمهم نحو التتر المترقبين لهم . وكان رجال التتر التسعة متحفزين ، وقد ركعوا على الرمال واستعدوا لاطلاق النار في الوقت المناسب .

وظل الجنود القوزاق ، وراء العربة . يقتربون حثيثا من التتر . وكان أولنين يتوقع أن يرى التتر يطلقون النار في أية لحظة، ولكنهم كانوا يتحفزون وهم يرددون نشيدا جنائزيا ، وفجأة توقف النشيد وانطلقت رصاصة من صفهم ، وملأت الجو صيحاتهم .. ولعنـاتهم

وطلقات بنادقهم ، ولكن الجنود القوزاق ظلوا يتقدمون مستترين بعربة التبن ، دون ان يطلقوا رصاصة واحدة ، حتى غدوا على مسافة بادرات من مكمن التتر .

وفى لحظة واحدة ، اندفع الجنود من جانبى العربة ، يتقدمهم ليوكا ، وصياحهم يمزق الجو .. وسمع أولنين دوى بضع طلقات نارية ، ثم صيحات توجع وانين ، ولاح له انه رأى الدماء تتطاير بين سحب الدخان . وترجل عن جواده بسرعة .. واندفع الى زملائه ليساعدهم فى المعركة ، ولكنه فوجىء بأن كل شىء انتهى فى لحظات ، وان الجنود القوزاق أطبقوا على التتر وقتلوا بعضهم وأسروا البعض الآخر ، وكان ليوكا ممسكا بذراع تترى جريح وهو يصيح فى زملائه قائلا :

ـ لا تقتلوه .. اننى أريده حيا .. انه شقيق التترى الذى قتلته .. انه الرجل نفسه الذى جاء ودفع الفدية ليتسلم جثة أخيه .

وكان ليوكا يلوى بعنف ذراع التترى ، ولكن هذا تخلص منه فجأة ، وأطلق عليه النار من غدارته وسقط ليوكا على الأرض ، وانبثقت الدماء من بطنه ، ولكنه وثب واقفا وراح يغمغم باللعنات ، وحاول أن يهجم على التترى ، ولكن نازار كان أسرع منه ، فأطلق مسدسه على التترى وقضى عليه . وأسرع زملاء ليوكا اليه لاسعافه .

وانتهت المعركة ، وحملت الجثث واقتيد الاسرى الى دار شيخ القرية وعاد أولنين الى مسكنه ، وفى المساء سمع أن ليوكا لم يمت ، وان كان جرحه خطيرا ، ولكن أحد الأطباء عبر النهر ووعد بالحضور لاسعافه ببعض الأعشاب المعينة .

وانتظر أولنين حتى فرغت ماريانكا من أعمالها المنزلية فى الفناء وفى حظيرة المواشى ، ثم ذهب اليها فى كوخها . وهناك رآها واقفة وظهرها اليه ، فظن أن الحياء العذرى يغلبها على أمرها ، ومن ثم قال :

ـ ماريانكا .. هل تسمحين لى بالحديث معك ؟

فاستدارت نحوه فجأة وقد تبللت عيناها بالدموع ، وارتسم

الحزن العميق على وجهها الجميل . ونظرت اليه فى ترقع صامت ! وعاد هو يقول !

ـ ماريانكا .. لقد جئت .

فهتفت قائلة وقد انسابت الدموع على وجنتيها غزيرة !

ـ دعنى وشأنى .

ـ ما هذا ؟ ماذا حدث ؟.

فقالت بصوت جاف !

ـ ماذا حدث ؟ القوزاقيون قد قتلوا .. هذا هو ماحدث .

ـ أتعنين ليوكا !.

ـ ابتعد عنى .. اننى لا أريد منك شيئا .

فقال لها عاتبا !

ـ ماريانكا !.

ـ انك لن تنال منى شيئا أبدا .

فقال أولنين متوسلا !

ـ ماريانكا .. لا تتحدثى الى هكذا .

فصاحت الفتاة وهى تضرب الأرض بقدمها !

ـ ابتعد عنى ، اغرب عن وجهى . اننى اكرهك .

***

وادرك أولنين من تعبيرات وجهها الممتلىء بالكراهية والغضب والاحتقار انه فقد كل أمل معها ، وانه ، كما كان يظن من قبل ، لا يعنى فى حياة هذه الفتاة شيئا على الاطلاق .

وبهذا الشعور الثقيل ، اندفع خارجا من الكوخ دون أن يجيب بشىء .

***

وبعد عودته الى مسكنه ، رقد فى سريره نحو ساعتين بلا حراك . ثم نهض ومضى الى قائد وحدته وطلب منه الاذن بالانضمام الى القوات المقاتلة . وبدون أن يودع أحدا ، وبعد أن أرسل فانيوشا «ليسوى» حساب اقامته مع والد ماريانكا استعد للرحيل الى القلعة التى تقيم فيها القوات المقاتلة . وكان العجوز ايروشكا هو الوحيد الذى جاء لزيارته فى ذلك اليوم ، فجلس معه يشرب

الكأس بعد الأخرى حتى وقفت المركبة التى ستقله وحاجاته الى القلعة أمام الباب .

وقال أولنين للعجوز ايروشكا :

ـ كيف حال ليوكا ؟ هل سيشفى من جرحه الخطير ؟.

ـ الله وحده يعلم . ولكن شيخ القرية أرسل يستدعى طبيبا جراحا من مدينة جرونزنى .. آه .. ذكرتنى .. يجب أن امضى الى ماريانكا واطمئنها عليه ..

ونهض أولنين وصافح العجوز قائلا :

ـ حسنا يا ايروشكا .. وداعا ..

وضغط العجوز على يد أولنين بحرارة وقال :

ـ وداعا يا صديقى الشاب .. اننى احبك .. احبك كابن لى وداعا .

ولما اتخذ أولنين مقعده فى المركبة ، قال أيروشكا :

ـ اعطنى تذكارا يا عزيزى أولنين ، ان معك بندقيتين .. اعطنى احداهما .. ماذا ستفعل باثنتين ؟.

فابتسم أولنين ، وقدم بندقيته للعجوز ، على حين قال فانيوشا ستنكار :

ـ ان جشع هذا العجوز الخبيث ليس له حدود .

وفى تلك اللحظة خرجت ماريانكا من حظيرة المواشى ، والقت نظرة عابرة على المركبة ، ثم استدارت وسارت نحو باب كوخها .

وغمز فانيوشا بعينه وقال وهو يضحك بحماقة :

ـ يا لها من فتاة !.

وهتف به أولنين غاضبا :

ـ هلم امض ..

وصاح العجوز ايروشكا قائلا :

ـ وداعا يا ولدى .. وداعا .. اننى لن انساك .

ولما تحركت المركبة ، نظر أولنين وراءه ، واذا هو يرى العجوز ايروشكا يتحدث مع ماريانكا فى شأن من شئونه الخاصة كما يبدو دون ان يحاول هو أو الفتاة القاء نظرة واحدة عليه .

« تمت »

الدار القومية للطباعة والنشر

الثقافة والإرشاد القومى

الدار القومية للطباعة والنشر

مركز الإشعاع الثقافى
فى العالم العربى
من القاهرة

مكتبات الدار

- نيويورك
- لندن
- الجزائر
- بيروت
- طرابلس
- بغداد
- الخرطوم
- الإسكندرية
- القاهرة

يصدر عنها

الكتاب الاساسى	روايات عالمية
مذاهب وشخصيات	من الشرق والغرب	كتب سياسية
كتب قومية	فى المسرح العالمى	اختر لك
اختر للمجتمع	اختر للطالب	اختر للعامل والفلاح
دراسات اشتراكية	رسائل جامعية	الجوائز العالمية

مجلة الإذاعة والتليفزيون

مجلة نداء الوطن

ARAB OBSERVER

L'OBSERVATEUR ARABE

The Scribe ARAB REVIEW

Le Scribe EGYPTIAN ARAB

Le Scribe REVUE ARABE

El Escriba REVISTA ARABE

Der Schreiber